الدكتور على محمد عبد الوهاب

صعيدى... فى أمريكا

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET
https://twitter.com/SourAlAzbakya

رحلة الأمل والنجاح

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

https://twitter.com/SourAlAzbakya

https://www.facebook.com/books4all.net

منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net

صعيدى فى أمريكا

رحلة الأمل والنجاح

الدكتور على محمد عبد الوهاب
أستاذ إدارة الأعمال
كلية التجارة - جامعة عين شمس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي *
وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي *
يَفْقَهُوا قَوْلِي * ﴾

صدق الله العظيم

[سورة طه الآية ٢٥ - ٢٨]

إهداء

إلى :

والدي رحمه الله : النور الذي أضاء لي الطريق

والدتي عافاها الله : الدفء الذي أحاط بهذا النور

إخوتي : رفاقي المخلصين على درب الحياة

المحتويات

(١) الرحيـــل	٩
(٢) البدايـــة	٢٩
(٣) الدراسـة	٤٥
(٤) النجـاح	٦٩
(٥) الدكتوراه	٨٩
(٦) الحـــب	١١٩
(٧) التعليـــم	١٤٧
(٨) الحصـــاد	١٦٩
(٩) العـــودة	٢٠٧

١

الرحيل ...

﴿ ومن يهاجر فى الأرض يجد مراغما كثيرا وسعة ﴾

سورة النساء ١٠٠

☆ ☆ ☆

سافروا ففى السفر خمس فوائد
تفريج هم وإكتساب معيشة
وعلم وآداب وصحبة ماجد

☆ ☆ ☆

عدى السنين لغيبتى وتصبرى
ودعى الشهور فانهن قصار

إنبثق فجر يوم جديد من أيام الصيف الحار فى مدينة القاهرة . والفتى مازال يتقلب فى فراشه قلقا . . إنه لم ينم فى ليلته هذه إلا قليلاً . كانت حاله كما قال الشاعر :

لم يطل ليلى ولكن لم أنم ونفى عنى الكرى طيف ألم

ولكن الطيف الذى ألم بالفتى وملأ عليه خياله ، كان يختلف بالتأكيد عن ذلك الطيف الذى يقصده الشاعر ، إنه سيبدأ اليوم رحلته إلى الولايات المتحدة الأمريكية .

تنفس الصبح . . وبدأ ينشر خيوطه البيضاء ، على استحياء ، لتبدد ظلمة الليل تدريجا . واختلط النور الأبيض - الرمادى - الوردى - بزقزقة العصافير تسبح بحمد ربها - خالقها ورازقها . . . تغنى ترنيمة الأمل . . تصفق بأجنحتها . . ترفرف سعيدة مرحة . . تزف الصباح الجديد . . . ليت الإنسان يقلد هذه الطيور الرقيقة ، فى بهجتها ، ونشاطها ، وتلقائيتها ، وتفاؤلها ، وصدق توكلها على الله .

امتلأ الجو نوراً ، وأشرقت أشعة الشمس الدافئة ، ونشط الناس ، دبت فيهم الحياة مرة أخرى . . بدأوا يستعدون للإنطلاق إلى أعمالهم وتجارتهم وأرزاقهم . . . باعة الصحف ، والعمال ، والباعة الجائلون ، والموظفون . . . رجالا ونساء ، كل إلى

وجهته . . . وامتلأ الشارع بالحركة ، وتعالت أصوات محركات السيارات ووسائل النقل العامة .

قام الفتى من مكانه ، عليه أن يستعد هو الآخر ، فسيخرج مبكرا قاصدا مطار القاهرة . . .

كانت تتنازعه أفكار كثيرة ، وعواطف شتى ، ومشاعر متناقضة . . . .

إنه سيسافر اليوم إلى أمريكا . . . ذلك العالم المجهول ، الكبير ، المثير . إنه يسمع عنه فقط ، ويرى عينة منه فى السينما . . الأفلام الأمريكية التى كان يشاهدها فى دور العرض فى القاهرة ، الساحرة ، العامرة ، الغاصة دائمًا بالناس تموج بهم الأماكن وكأنهم وسط طوفان ، والتى جاء إليها من « بلدهم » فى الصعيد - منذ سنوات - ليدخل الجامعة ، ذلك الصرح الشامخ الكبير الذى يجتمع فيه الأولاد والبنات سويا ، يجلسون عن قرب يستمعون إلى الأستاذ ويذهبون معًا فى وسائل النقل العام ، ومنها « الترام » - ذلك القطار الصغير الذى كان الفتى يحب ركوبه . والذى كان كثيراً ما كانت تنفصل البكرة التى تخرج من سقفه ، عن السلك الكهربائى الضخم الذى يمتد طولاً وعرضًا فى سماء القاهرة . . فيتعطل القطار وترتبك حركة المرور . . .

لقد أحس الفتى يوم جاء إلى القاهرة بالوحدة والضياع . . وقليل من الخوف ، وفى نفس الوقت فرحة يكتنفها الغموض . . إنه سيقيم فيها هذه المرة ويذهب إلى الجامعة . . إنه اليوم شاب محترم مستقل أتم دراسته الثانوية وأصبح فى بداية سلم الرجولة . وكان قد زار القاهرة قبل ذلك بستين ، مع والده رحمه الله ، الذى كان يعرف القاهرة جيدًا : ضواحيها ومعالمها وشوارعها وكثيرًا من أسرارها . فقد قضى فيها زمنا طويلا أيام كان طالبا بالجامعة ، ثم معلما ومربيا فاضلا يغرس فى تلاميذه الخلق القويم والسلوك الطيب إلى جانب العلم الغزير .

وقد أسلم الفتى قياده لوالده عندما زار القاهرة أول مرة . . وأخذه أبوه من يده ، وكأنه مرشد سياحى للصبى الصغير . . اليوم نزور المتحف ، غدًا حديقة الحيوان . . ثم زيارات للأقارب ، والمساجد ، ومختلف المعالم . . . كان الصبى سعيدًا بزيارته هذه ، مبهورًا بما يرى ويسمع . ولكن الأيام مرت سريعة . . . كان لها مذاق خاص لذيذ ، ممتع نفسيا . . . يكاد الصبى يطير من الفرحة ، ولكنه سيعود مرة أخرى إلى البلد والمدرسة والكتاب والامتحانات . . . .

ولكنه حين جاء إلى القاهرة ليسكن فيها ، كان ينتابه شعور

آخر ، فإلى جانب القلق والترقب ، كان الفتى سعيداً بلاشك . . إنه سيستقل بنفسه ويحدد معالم طريقه . إنه اليوم « رجل » صغير . .

تركه أبوه لابن عمه . . . وأوصاه بالصبى خيراً ، ومضى حائر النفس دامع العين ، معلق القلب بولده ، داعيا له . . . هذه أول مرة يتركه وحيدا . ياترى هل سيتم مشواره . . ينجح . . يثبت ذاته . إنه ولده الأكبر ، وليس الأول ، فقد مات له أولاد كثيرون قبل هذا . . وصبر الأب ، واحتسبهم عند ربه ، وحمد واسترجع . . . يذكر الفتى والده ، نظراته ، دعاءه ، آهاته . . . لم يكن يفهم كثيراً منها . . ولكنه كان يحسها . . إن لها صدى فى قلبه وصدره وعينيه .

نفس الشعور الغامض الذى انتابه حين جاء للقاهرة ليدخل الجامعة ، يسيطر عليه مرة أخرى هذا الصباح . . . إنه سيذهب إلى أمريكا . . ولكن الفتى اليوم أكبر عمرا ، وأنضج شخصية ، وأوسع تجربة . . إنه يستطيع الآن أن يغامر ، يدخل إلى المجهول ، يتصيد الفرص ويحل مشكلاته . . . هل ياترى هذا حقيقى !!

ينظر الولد إلى أبيه . . يراه يتمزق حيرة . . وينظر إلى أمه ،

ويرى دموعـها التى لاتـتوقف .. وينظـر إلى اخوته الـصغار .. إنهـم حائرون ، يبـكون ، وربما لايفـهمون المـوقف ، أو لعلـهم يفهمونـه جيداً ويحسونه .. لقـد خيم على الأسرة جميـعا شعور عميـق غريب .. إنـه مزيـج مـن الحزن والفـرح ، التـرقب والخوف .. الفخر .. والحيرة ..

ولم يكن هـذا الشعور يسيـطر على الأسرة فى ذلـك الصباح فقـط - يوم السفـر . لقـد كـان يحـدث يـوميا ، لمدة عـام على الأقل . منذ أن بدأ الفتى يعد العدة للرحيل . ولكنه كان يتصاعد يوما بعد يوم حتى بلغ ذروته الآن ، لـقد بلغ السيل الزبى - كما يقول المثل العربى القديم .

كانت إدارة الـبعثات قد رشـحته لبعـثة إلى الولايات المـتحدة الأمريكية ، يتم فيها دراساته العلـيا ويحصل على الدكتوراه ليعود أستاذا بالجامعة ..

كان يومها معـيدا .. شابا .. منفتحا على الحـياة .. معجبا بنـفسه قلـيلا .. يحدوه الأمـل ، ويحيـطه إعجاب الآخـرين ، أقارب وطلابا وأصدقاء وغرباء ...

وكانت إجـراءات إدارة البعثات طويـلة ، بطيئـة ... وكانت

تجرى اتصالاتها وتعقد اتفاقاتها مع الجامعات الأمريكية . . . إجراءات القبول والحجز والمسكن والتمويل . . .

لقد مر الفتى بسلسلة طويلة من الخطوات . . كان بعضها ضروريا والآخر عقيما ، والبعض الثالث خليطا من سوء الإدارة وانخفاض وعى الموظفين وضعف تدريبهم ، وإن كانوا يحاولون جهدهم أداء الواجبات المناطة بهم .

وكانت أم الفتى تتابع هذه الخطوات ، بعينيها وقلبها . . . ولسانها يلهج بالدعاء لابنها الكبير . وربما لم يتوقف سيل الدموع من عينيها . لم يكن الفتى يهتم كثيراً بهذه الدموع . . . كان مشغولا بأمره . . يجرى هنا وهناك . . يتم الأوراق المطلوبة ، يحضر الإمتحانات التمهيدية - فى اللغة الإنجليزية ، وإختبار القدرات . يحضر المقابلات التى يعقدها المسئولون الأمريكان والمصريون ، للطلبة المرشحين للبعثات .

يجرى الفتى ، ويعود للبيت ، ويخبر أمه وأباه بما يحدث . . . تبكى الأم . . ستغيب عنا زمنا طويلا يا ولدى . . كيف أصبر على فراقك . . . ينظر الولد لأبيه . . يراه جلدا صبورا صامدا . . . كان رحمه الله كذلك دائمًا . . . كالجبل ، كالهرم . . كان يحمل بين جنبية قلبا كبيراً حانيًا . وكان يهون على

زوجه ، ويقول لهـا : إصبرى . إنه ذاهب للعلـم . . للرقى . . سيعود دكتورا ، أستاذا . . .

وكان الفتى يـفرح لجلد أبيه ، ويعجب بـصبره وهدوئه . . . إلى أن إقترب يـوم الرحيل . . لم يبق إلا يوم أو إثـنان . وإشتد بكـاء الأم ، تصحبـك السلامـة يا ولدى . لنـا الله . . أنجح الله مسعاك يا بـنى . وينظر الولد لأبيه يـستمد منه العون ، ويـستلهم الصبـر ، ويأخذ منـه شحنة أخرى تـعينه علـى مواصلة الـسير ، والتغلـب على العـواطـف الكثيرة التى كـانت تثيرها أمـه فـى نفسه . . . وإذا بـالولد يجد أباه . . الـصابر الجلد . . يبـكى فى صمت . كان هنـاك خطان ، بل نهران من الدمـوع . . . ينسابان فى صمت بليغ . . . كانـت نظرات الأب حائرة ، وقواه خائرة . لقـد اقترب الـفراق . . سيسـافر الولـد . . ترى هل سيـراه مرة أخرى !!!

هنالك لم يحتمل الفتى الموقف . . هرول إلى غرفته ، وكأنه يهرب من نفسـه . . وبكى كثيرا فى تلك اللحـظة ، وشعر بحب جارف لوالديه . . رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا . . .

☆ ☆ ☆

لقد مـر بمراحل عديـدة حتى وصل إلـى نهاية الـطريق ، أو بدايتها . فقد انتهت كل الإجراءات ، ليبدأ السفر .

يذكر الفـتى ذلك الإمتحان الـعصيب الذى أخذه فـى الجامعة الأمريـكيـة بالـقاهـرة . أرادوا أن يقـيسـوا قدراتـه وصلاحـيتـه للدراسات العـليا . . . إنه إمتحان دولى مـقنن تبثه أمريكا لـلعالم جمـيعا . . يـأخـذه طلاب البـعثات فـى كل مـكان . . استـمر الإمتـحان خـمس سـاعـات . كان هنـاك طـالبـان - صعـيدى وسعودى . أخذا مـقعديهما ، ودخلـت سيدة أمريكيـة طويلة ، متقدمة فى العمر ، تبتسم قلـيلا ولكنها جادة . . كأنها كانت تقود سفيـنة أو فرقة حـربية . أليس الإمـتحان نوعـا من الحرب . . . النـزال . . تصارع فيـها الأسئلـة ، فإما أن تجـيب عنـها فتفـوز وتتقدم ، وإمـا أن تفشل فى الإجابة فـتظل مكانك أو تـتأخر عن الركب .

إستـلم الـفتـى ورقـة الإمتـحان . . وأخـذ يقـرأ الأسئـلة الإنجليزية . . ويجـيب قدر استطاعته ، كان يعصـر فكره وقلبه . كانت تتـراقص أمام عينيه تحـديات كثيرة . . العلـم الذى يريد أن يحصله فـى بلاد العام سام . . وجامعتـه التى تنتظره ليـعود إليها حاملا شهادتـه الكبيرة . . وأسرته التى تفـخر به . . وأقاربه . . والأصدقاء . . .

يبذل الفتى قصارى جهده . . . يـفكر ويكتب . . ثم يقرأ ما كتب ، ويفكر مرة أخرى ، خمس ساعات مرت ثقيلة ، صعبة ، فيها تحد ، فيـها عذاب ممتع - إن كان للعذاب متـعة . . . يا إلهى كيف تجتمع المتناقضات . . . ولكنها الحياة . . مزيج كبير منها . . وانقضـت الساعات الخـمس . . . وسلم الـفتى أوراق الإمتـحان للسيده الـتى أخذتها مبتسمـة . . وغمزت له بعينهـا . . إنها غمزة تشجيع ، فهمها الفتى بعد أن سافر إلى أمريكا وتعرف على عادات الأمريكان وأنماط سلوكهم .

ويذكر الفـتى كذلك إمتحانـا مماثلاً . . . فى اللغة الإنجـليزية هـذه المرة . . خمـس ساعات أخـرى . . يكـاد الفتـى يلتـصق بكـرسيـه . . يكتـب ، يجيـب عـن أسئلـة مقـروءة ، وأخرى مسـموعة . . هـذا شريط ، وهذه ورقـة . . . هذا حوار وتـلك أسئلة . . هذه قـصة وتلك قواعد اللغة . . . أمـواج من الأسئلة تتلاطم مع بعضـها ، يرتطم بها الفتى . . . يصارعـها . . يغلبها وتغلبه . . يركبها وتغرقـة . . . يخرج من الامتحان وكأنه كان فى موقعــة حـربية . . ولـكنـه يحس بـالإنتصار ، يشعـر كأنه ازداد طولا ، يقف على أرض صلبة ، يمشى واثق الخطوات . .

كما يذكر الفـتى تلك المقابلة التى عقـدوها له فى المجمع . .

ذلك المبنى الذى يقف شامخا طويلا عريضا ، فى ميدان التحرير . . له مهابة ومكانة فى نفوس ذوى الحاجات . يرتاده آلاف من المواطنين كل يوم . . يحملون صنوفا من الأوراق وفنونا من المستندات - وكثير منها لالزوم لها - يركضون ويصعدون الدرج ويهبطونه . . هذه الأوراق للتوقيع ، وتلك للمراجعة . . للتسليم . . للأختام . . . ويختلط هذا الجمع من المواطنين بجمع آخر من الموظفين . وهؤلاء يستلمون الأوراق الممتدة إليهم ، من النافذة ، أو حول المكاتب . وهذا فراش يطوف بالأوراق وكأنه غزال رشيق ، يمرق بين حشود الناس ، يسرع مرة ويتلكأ أخرى . . . ويحركه « البقشيش » فى كل الأحوال . . هكذا البيروقراطية . . تخلق إلى جوارها وسطاء وأدعياء يحتالون لقضاء حاجات الناس التى هى من حقهم أن يقضوها . . . لماذا تتفشى الرشوة ؟ إن أحد الأسباب الجوهرية هو إجراءات العمل البطيئة ، القديمة ، التى لاتناسب العصر ، إنها مبنية على الحذر الشديد ، والشك ، والخوف من ارتكاب الأخطاء . ويضيق ذوو الحاجات بهذه الإجراءات ، فيبحثون عن طرق للتحايل عليها أو إختصارها ، أو يبحث لهم الموظفون عن « مخرج » منها . فتبرز الرشوة التى يقبلها ضعاف النفوس ، أو يتوقعونها ، أو يطلبونها جهرة !!

والحل . . . إعادة دراسة هذه الإجراءات وتخفـيضها بالشكل الذى يضمن دقـتها وسلامة المعاملات وفى نـفس الوقت الإسراع بها . ألا يوجـد الكمبيوتر الآن ؟ ومصر من أكثر الدول استخداما لأجهـزته ! يبقـى إذن الجزء الفـكرى الذى يـتعلـق بأسـالـيب تشغـيله . . . وذلك حتـى يتم قضاء حاجـات الناس حفاظـا على مصالحهـم ووقتهم . . . ومعظمـهم موظفون أو عاملـون بجهات أخرى . وكلما تعـطلت مصالحهم أو تأخرت ، تعـطلت إنجازاتهم وتقهـقرت إنتاجـيتهـــم ، والتـى تمس بدورهـا مصالــح ناس آخرين . . . وهكذا تـدور الحلقة . . تعطيل فى هـذه المصلحة أو الديوان ، يـتبعه تـعطيل فى مـصلحة أو ديـوان آخر . . فينـتشر ضعف الإنتاجيـة وينتاب الناس شعور بعدم الإنجـاز ، فتقل حركة المجتمع ويقل تقدمه أو يزيد تأخره .

تمضى الساعات بالناس فى هذا المجمع . . . الموظفون منكبون على أوراقهم . . هــذا الموظـف يسلمـها للمـواطـــن كاملة . . يفرح الأخير ويمضى مسرعا وكأنـه عثر على كنز . . ومواطن آخر ينتظر . . وثالث يتهالك علـى كرسى قديم فى الممر حيث لايقوى على الـوقوف . . ورابع يتذمـر . . وخامس يشـكو . . وسادس يدعو . . . . إلى أن تـنتهى ساعات العـمل . فيتفـض الموظفون مسرعين للخروج . . ويخرج المواطـنون . . بعضهم سعيد والآخر

متذمر وثالث مترقب . . . وينقضى يوم . . ويهدأ المجمع . . إلى أن يجئ صباح يوم جديد . . .

ألف الفتى هذا المنظر ، لكثرة تردده على إدارة البعثات بالمجمع ، يسلم أوراقه ، ينتظر توجيهات ، يكمل إجراءاته . . . وكانت المقابلة التى عقدوها له ولعدد من المعيدين المرشحين للبعثات - ضمن هذه الإجراءات .

مضى الفتى نشيطا فى ذلك الصباح . وأخذ يسترجع بعض الكلمات الإنجليزية ، ويتخيل مشاهد قصيرة ، وطويلة ، متقطعة . . . لما سيحدث بينه وبين المسئول الأمريكى . ترى هل ستعجبه إجاباته . . . أى أسئلة سيوجهها له ؟ صعبة ، سهلة ، مفاجئة ، متصيدة للأخطاء (كم الساعة الآن . . كم عمرك . . لماذا تريد السفر . . ماذا تتوقع أن تجد فى أمريكا . . .)

دخل الفتى إلى مكان المقابلة بخطوات واثقة . . وإن كان يشوبها شىء من الخوف . كان يتطلع إلى المستقبل . ياترى هل سينجح ؟ هل سيقع إختيارهم عليه ؟ ووجد شخصين جالسين فى إنتظاره ، مدير البعثات المصرى ، والمندوب الأمريكى . استقبله الأخير بابتسامة ودعاه للجلوس . أما الأول فكان عابس الوجه

متـحفزا .. ينـظر بمزيج مـن الضيق والإحـتقار وشيء مـن عدم الترحيب .

بدأ الأمريكي يسأل ، والفتى ينصت ، ويجيب ... وانطلق لسان الفتى نـسبيا .. وكان الأمريكي يشجعـه على الحديث ، لم يسخر منه أو من لـهجته الغريبة ، والتى كانت أقـرب إلى اللهجة البريطـانية كما تعـلمها فى المدارس الابـتدائية والثانـوية ... كان الأمريكي يهـز رأسه موافقا ومشجعـا ، يبتسم ، يصبر حـتى يتم الفتـى حديثه (كم عدد الـطلاب فى كليتـكم ؟ ماذا ستفعـل بعد عودتك من أمريـكا وحصولك على شهـادتك ؟ ...) أما مدير البعثات فكان ضائقا بالفتى .. نافد الصبر .. يسأل أسئلة «فوقية» يتعالى بهـا على الفتى .. والأخير يجيب ، واثـقا ، هادئا بعض الشيء ، مترقبا ، راجيا أن يفوز فى هذا الإمتحان .

شد الأمريكي علـى يد الفتى وهو يودعه .. وحياه بـابتسامة صديقـة . أمـا المدير فقـال للفتى « شـوف لك طريقة تحسـن بها لغتك » . ولـعله قال ذلك لكل من دخـل للمقابلة - قبـل الفتى وبعده ، دون أن يفرق بين درجات الجودة فى لغتهم .

ذكريات كثيرة ... قصة كفاح .. خـاض الفتى خلالها كثيراً من التجـارب وتخطى كثيراً من الـعقبات . لم يكـن وحـده فـى

هذا النزال . . كان هناك أربعون معيدا ، خفضوا إلى خمسة وعشرين ، طبقا لنتائج الإختبارات والمقابلات ومختلف المقاييس . كان الفتى من هؤلاء الخمسة والعشرين الذين إختارتهم إدارة البعثات ليبتعثوا إلى الولايات المتحدة . وكانت الأخيرة ستتولى الإنفاق عليهم لمدة أربع سنوات كاملة ، تعليما وإقامة وإعاشة . . .

طاف بعض هذه الذكريات فى ذهن الفتى هذا الصباح الذى يشد فيه رحاله . والواقع أن الأحداث التى مر بها لم تكن تفارق خياله . . لقد كان يعيشها يوميا ، بحلوها ومرها ، سهلها وصعبها . وربما نسى الفتى الجهد الضخم الذى صاحب هذه الأحداث ، أو نسى ما أصابه فيها من تعب ، أو أن الترقب والتطلع للمستقبل شغل فكره الآن ، أو لعل لوعة فراق الأهل سيطرت على كل مشاعره . الأسرة كلها تلتف حوله . . تودعه بعيون ملهوفة وقلوب مشغوفة وألسنة تلهج بالدعاء وصدور تخفق بأمل العودة وإلتئام الشمل مرة أخرى .

ودع الفتى أمه التى لم تزل تبكى . . لم تجف دموعها بعد . . دعت له كثيراً ، وسألت الله له سلامة العودة ، تعلقت عيناها به وهو يغادر البيت . . لم تكن تريد أن تضيع لحظة واحدة

لاترى فيهـا ابنها . وهل يغيـب الولد عن أمه حتى ولـو لم يكن أمامها . . ! إنها تراه بعقلها وقلبها ووجدانها !!

وصل الفتى وأبوه وإخوته إلى مطار القاهرة . . كان الإرهاق يبدو على الجميع ، فربما لم يناموا ليلتهم من كثرة التفكير . عانق الوالد ولده . . سرت بينهما كـهرباء الحب والحنان . . ذاب الفتى فى حضن أبيه وأحـس بدفء العواطف التى يبثهـا أبوه . لقد كان دائمًا هكذا ، يتدفق حنانا وعطـفا على أولاده . ولكن حنانه هذه المرة مشوب بالخوف والرجاء . . . ودع الـفتى إخوته ومضى إلى الداخل . . إبـتلعته صالـة المطار . . ذاب فى الزحام . . إنـخلع قلب الأب ، وكأنه تركه لولده يسافر معه .

إلتقى الفتى مع زميله الذى سيـصحبه إلى أمريكا ، معيد فى كليـة الزراعة . أنهـى الإثنان إجراءات الـسفر وخرجـا إلى أرض المطـار . . . كانت الـطائرة تـربض هنـاك وكأنهـا وحش كبـير ، استطـاعوا ترويضه ، وعقـلوه ريثما يـتمكن الناس مـن ركوبه . وحش يخيـل إليك أنه يريد أن ينفـلت من عقاله وينطـلق لايلوى على شـىء . صعد الفتـيان سلم الـطائرة . . ودلفا إلـى الداخل مسرعـين . وكأن الوحش الكاسـر إلتقمهـما فى لحظة . قادتـهما المضيـفة ، جمـيلة ، رشيقـة ، ذات ابتسامـة عذبة . . . تبـعها

الفتيــان كأنهما طفــلان يتبعان أمهمــا أو أختهما . أرشدتــهما إلى مقعــديهما . . مــازالت الإبتسامــة تعلو وجــهها المشــرق . جلس الفتــيان ، ربطا حزامــيهما . . هذه أول مرة يــركب فيها الــفتى - وربما زمــيله أيــضًا - هذا الــطائر الــضخم . قــرأ الفــتى وزميــله التــعليــمات المضــاءة فى سقــف الطائــرة - ربط الأحزمــة ، عدم التــدخين . . . بــدأت الطــائرة تــسيــر علــى الأرض ، إستــعدادا للإنطلاق ، حتــى إذا استجمعت قوتها عــلت فى الجو . . طارت بالفــتى تأخذه إلى مقــره الجديد . . المجهول . . الغــامض ، فى رحلــة الأمل والمستــقبل . ألــقى الفــتى برأسه عــلى مقــعده . . وأغمض عينيه قليلاً . . لقد إمــتلأت رأسه بأفكار كثيرة ، وأسئلة كثيرة ، وعلامات إستفهام متعددة . . .

☆ ☆ ☆

طار الطائــر الضخم مليا . أحــس الفتى أنه مفــقود فى هذا العــالم ، ضــائع بين الــسمــاء والأرض والجبال والــبحــار . كان إحساســا غريبــا لذيــذا بعـــض الشىء . وكــأن الطائر قــد أصابه التعب ، فآثر الهبوط ، وجثم على الأرض كأنه الصاعقة . وهبط الناس فــى مطار روما . . . غــادروا مسرعين كــأنهم ذباب صــغير نفضه الطــائر الكبير فتنــاثر من حوله . . . وسعى الفــتى وصديقه

مع الناس مسرعين . . كان عليهمـا أن يركبا طائرة أخرى تأخذهما إلى نيويورك .

وبدأت رحلة أخرى . . طويلة . . شاقة . . أكثر من عشر ساعات ، قضاها الفتى فى حديث مع صديقه ، عن أحوالهما والأحلام التى تدور فى رأسيهما . . كما شاهدا فيلما أمريكيا - ياه . . سينما فى السماء !! وتناولا وجبات الغذاء التى قدمتها المضيفات الرشيقات الصديقات .

وحط الطائر الضخم مرة أخرى . . فى مطار نيويورك . هبط الفتى وصديقه ، وسط حشد هائل من الناس ، يروحون ويجيئون . . المكان يموج بالناس من كل جنس ولون . . . وكلهم غرباء . . . كل مشغول بأمره . . تلفت الفتيان حولهما فى حيرة . . أحس الفتى بالخوف قليلا . . تفقدا الرجل المكلف بانتظارهما ، مندوب المعهد الدولى للتعليم . ماذا لو لم يظهر هذا المندوب ! ماذا يفعل هذان الغريبان !! إن كل واحد منهما يحمل فى جيبه سبعة وأربعين دولاراً فقط ، إلى جانب الآمال الكبار التى يحملانها فى رأسيهما وقلبيهما .

وعثر عليهما المندوب ، ورحب بهما ، واصطحبهما إلى خارج المطار . وقادهما إلى تاكسى أوصى سائقه أن يأخذهما إلى

الفندق الذى سيقضيان فيه ليلتهما . ومضى التاكسى مسرعا لايلوى على شىء . . . السيارات كلها مسرعة ، يخيل إليك أن الطرقات تتحرك بحركة السيارات التى تمرق عليها كالسهام . . . لم ير الفتيان كثيراً من المدينة . فقد حل الظلام . . والسيارة سريعة . . . والبال مشغول . . والأجسام لقيت من سفرها نصبا . .

قضى الفتى وزميله ليلتهما الأولى فى بلاد الغربة - فى نيويورك . بحثا قليلا فى قنوات التلفزيون الضخم الذى يربض فى غرفة الفندق الذى نزلا فيه . كان عليهما أن يذهبا مبكرا فى الصباح التالى إلى مطار محلى ، ليسافرا إلى مقر الدراسة التمهيدية ، ليتعلما اللغة والعادات الأمريكية الجديدة . إنها التهيئة المبدئية - الذهنية والنفسية والإجتماعية التى تسبق الدراسة الأكاديمية المتخصصة .

لقد دقت ساعة الجهاد . . وبدأت إشارة الجد والعمل .

٢

البداية ...

﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ﴾

سورة الفتح ١

☆ ☆ ☆

أول الغيث قطرة ثم ينهمر

☆ ☆ ☆

رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة . . .

إستقـر الفتى فى مكـانه الجديد ، فى المقـر الداخلى للطـلبة بإحدى الجامعات . كـان عليه أن يقضى حوالى الشـهر - ما تبقى من الـصيف - فى بـرنامج مكـثف للغـة الإنجليزيـة تنظمـه هذه الجامعة الصغيرة للطلبة الأجانب .

كانت المـدينة التـى حل بها هادئـة ، جميلـة ، خضراء . . . أقرب إلى القرية ، أهم ما يميزها النظافة واللمعان . كل شىء فيها له بريـق ، كأنه مرسـوم بعناية . تـلمس فى هـذه المدينة - أيـنما توجهت - لـيس فقط دقة الهـندسة ، ولكن أيضًا سـلامة الذوق وحسن الترتيب وجمال الطراز .

أقبل الفتى عـلى دراسة اللغة بهمة وأمل . كـان يبدو سعيدا نشيطـا . وقد أعجب بمدرس اللغـة الإنجليزية كثـيراً . كان رجلا هادئا صـبورا ، يحب تلامـيذه ، يقدم لهـم اللغة فى إطـار سهل تدريجى ، مع ابتسامة عريضـة ، تبث فى هؤلاء التلاميذ الأمل ، وتنمى فيهم الرغبة والإقبال على التعلم .

كانت قاعة الدرس تحفل بالطلاب من كل أنحاء العالم ، ومن مختلف المهن - طبيب وزراعى ومهندس وأكاديمى . . . من البلاد العربية ، والهند ، وأمريكا الجنوبية ، وأفريقيا . . . جاءوا جميعا إلى أمريـكا - تلك الـبوتقة الـكبيرة الـتى تنصـهر فيهـا الأجناس

واللغـات والعادات ، وتلتـقى فيها الأفـكار الجديدة ، الغـربية ، الخلاقة ، تدفع بها دائمًا إلى الأمام وتخلق لها كثيراً من المشكلات أيضًا .

اندمج الفتى فى مـجتمعه الجديد بسهولة ويسـر . كان يلتقى مع زملائه فى الصـباح فى المطعم الكبير الذى يتـناول فيه الطلاب طعام الإفطار ، ثم يهرول معهم إلى قاعات الدرس ينهل من اللغة الإنجليـزية ما يستطـيع . . من خلال حديث هـذا المدرس الجاد ، والتسـجيلات التـى ينصت إلـيها فى مـختبر الـلغة ، وتوجـيهات مدرس النطق والصوتيات ، والأحاديث الـتى يتبادلها مع الطلاب والأساتذة والمشرفـين . وكان هؤلاء المشرفون قد وضعـوا فى بهو الجامعة لافتة كبيرة تقول « تكلـموا الإنجليزية فقط » ، حتى تلتزم جميع الأجناس بلغة واحدة . . غـير أن ذلك لم يمنع الطلاب من استخدام لغاتهم الأصلية بين الحين والآخر . فكنت تسمع فى هذا البهو لغطـا كثيراً . . . خليط من لغات العالـم . وكأنك فى مؤتمر صغير يـجمع المتكلمـين بلغات مختلـفة . ثم يقضى الفـتى مساءه يتجول فى شوارع المدينة الصغيـرة ، وكأنه يريد أن يتعرف عليها . ويجلس مع الأصدقاء - العرب والأجـانب - فى الحدائق الصغيرة المحيطة بالجامعة ، يسمرون ويتأملون ويحلمون .

ولم يقتصر الأمر على تعلم اللغة . فقد نظمت لهم الجامعة برنامجا حافلا بالرحلات والزيارات الترفيهية والتعليمية والإجتماعية .

فأخذوا الطلاب الأجانب جميعا إلى البيت الأبيض فى واشنطن العاصمة . وكانت فرحة الفتى رائعة بهذه الزيارة . هنا يقع مكتب الرئيس .. هنا يستقبل ضيوفه .. هنا يقضى وقت فراغه فى الحديقة المليئة بالزهور .. هنا تدار شئون العالم . سأل أحد الطلاب واحدا من المدرسين الذين اصطحبوهم فى هذه الرحلة : هل يمكن أن نقابل الرئيس ؟ فأجاب المدرس بهدوء : لو كان لديه وقت لأسعده ذلك ..

كانت الرحلة ممتعة .. مثيرة .. إن كل مبنى تدخله ، الكابيتول ، مسلة واشنطن ... يثير فى نفسك مشاعر كثيرة ، ويثير فى رأسك أسئلة متنوعة ...

يذكر الفتى كيف ازدحم رأسه بالأفكار عندما أخذه أبوه قبل الجامعة ، إلى قلعة صلاح الدين ، ومساجد القاهرة ، والمتاحف والآثار . إن للتاريخ عطرا خاصا ومذاقا غريبا ... هنا تصنع الأحداث .. هنا أصاب القادة وأخطاؤا .. هنا اتخذت قرارات وجهت مسار العالم . إن بداية التعلم أن تدرس التاريخ .. نبه

لذلك إبن خلدون منذ زمن بعيد . فدراسة التاريخ تعمق نظرتك للأمور ، وتجعلك تربط الأحداث ببعضها وتفحص تراكماتها ، وتتفهم علاقة الأسباب بالنتائج ، فتستشرف المستقبل بضوء أوضح ، وتبنى قراراتك على أساس سليم .

ثم كانت زيارة أخرى لمتحف الفنون بواشنطن . انظر إلى الخبرة التعليمية العميقة التى يراد إنشاؤها فى عقول الطلاب، إن الأمر لايقتصر على العلم المتخصص فقط ، يجب أن تعنى بجانب الأحاسيس والمشاعر ، الذوق ، الجانب الجمالى . إن بعض المواد التى يدرسونها فى الجامعات - كما إكتشف الفتى بعد ذلك - تتضمن الموسيقى ، والرسم ، والقراءة السريعة ، والتذوق الفنى ... وهى مواد مفتوحة لجميع الطلاب على اختلاف تخصصاتهم واتجاهاتهم العلمية - من مهندسين وكيميائيين ومحاسبين . إن الشخصية الناضجة تضم بين جنباتها تشكيلة من الإهتمامات ، إلى جانب التخصص العلمى أو البؤرة الرئيسية للمهنة .

رحم الله عباس العقاد ... لقد كان مهتما بالأدب ، والشعر ، والفلك ، والفضاء .. كان مدرسة بليغة اكتشفها الفتى عندما كان أبوه يوصيه منذ الصغر بالقراءة المتنوعة ، باللغة العربية

والإنجليـزية . وقـد أطـاع الفتـى أباه وعرف طريـقه إلى المكـتبة مبكرا . كانت مكتبة رفاعة رافع الطهطاوى بالصعيد - إلى جانب مكتبـة أبيه العامرة التـى اقتنى فيها أبـوه كتبا كثيرة خـلال مراحله التعليمية حتى الجامعة - تزخر بأمهات الكتب التى أقبل عليها يقرأ منها ما استطاع ، وما مكنه عقله الصغير أن يستوعب ، وما اتسع له وقته . واكتشف فى رحلته مع الكتب كثيرًا من العمالقة العرب والمـصريـين . تـعـرف علـى المـبرد مـن خـلال « الـكامـل » ، والأصفهانى من أغانيه ، والجـاحظ من بخلائه . . . . قرأ قصص الأطفال ونـوادر جحا وكلـيلة ودمنـة واستمتـع بقراءتهـا عشرات المرات . . . وقرأ أكثـر لطه حسين والحكـيم وتيمور وباكـثير وأبو حديد . . . . وأعجب بهؤلاء وأولئك وشعر بالحاجة إلى مزيد من المعرفة .

ثم كـانت زيـارة أخرى لإحـدى العـائلات الأمـريكـية الـتى استضافت الفتى وطالبا آخر سعـوديا . كانت عائلة ريفية ، تعيش فى إحدى الـقرى المجاورة للـمدينة التـى كان الفتى يـتلقى فـيها دراسـتـه التمهـيدية . . . وكانـت تتكون مـن الأب والأم وثلاث بنات . أثار الفتى ذلك الأسلوب البسيط الذى استقبلت به العائلة ضيفيهـا - رحبت بهما ، أطعمـتهما ، أعدتهما ضـمن أفرادها . خصصت العائلـة لهما غرفة مستقلة ، ولكن المنـزل كله كان يتسع

لهما ، يتجولان بين أرجائه . كان منزلا ريفيا بسيطا تحوطه حديقة وملعب صغير ويجاوره مخزن . تبادل الجميع أحاديث ودية . تعجب الفتى من تعليق الأب على ذريته . قال كنا نود أن نرزق ولدا . . ولكننا أنجبنا بنات . . . نفس الجملة يقولها فلاح مصرى ، فى قلب الصعيد أو قرى الوجه البحرى . وتذكر الفتى أغنية قديمة من أهازيج التراث الشعبى ، كانت النسوة يرددنها عندما تضع إحداهن مولودا جديدًا : « لما قالوا دا ولد . . . ضهرى انشد وإتسند » . سبحان الله يخلق ما يشاء ويختار .

وأمضى الفتى وزميله عطلة الأسبوع مع هذه العائلة ، فى مزرعتهما الصغيرة وبيتهما الريفى الجميل . . . مع الخضرة الرائعة التى وهبها الله لهذه البقعة من الأرض ، وتحت السماء الزرقاء الصافية . كانت عطلة رائعة . . جدد الفتى خلالها نشاطه ، وقوى فيها أمله ، وعمق رغبته فى الإفادة من هذه الحياة الجديدة . . الغنية . . المثيرة . . الحافلة دائمًا بالجديد .

مضت الأيام والأسابيع . . كان الصيف فى نهايته ، وستبدأ الجامعات والمدارس موسمها الدراسى . مر الشهر سريعا ، سعيدا . . لم يحس الفتى بوحشة رغم اختلاف الزمان والمكان والوجوه . . كانت الأنشطة المتنوعة لبرنامج التعريف تشغل وقته

وتدمجه فـى المجتمع الجديد . وأمـا دروس اللغة الإنجليـزية فقد كانت أقـرب إلى الترفيه مـنها إلى التـعليم الرسمـى الجاف . كان الموجهون يـقدمون اللغة فـى جرعات سهلة مـنظمة متـابعة . . . ويتنقلـون من السهل إلى الصعب ، من المـعروف إلى المجهول ، برشاقـة ومهارة . . . يضـربون أمثلة ، يـوضحون ما يـقولون ، ويعـيدون ويـكررون ، ويـشجعـون الدارسـين ويصـبرون عـلى أخطائـهم ، والتى كانت كـثيرة جدا عند بـعضهم - كالأمريـكيين اللاتينيين مثلا . وقد سعد الفتى كثيرًا بتعليق أستاذه بأن لغته ممتازة وأنه سيتقنها قريبًا .

ثم سافر الفتى بـعد ذلك إلى مدينة واشنطن ليكـمل ما تبقى من فتـرة التعريـف والتأهيل . إنـها العاصـمة هذه المرة ، المـدينة الكبيرة التى قرأ وسمع عنهـا وزارها فى رحلة سابقة خاطفة . . . لقـد عاد إلـى الزحـام مرة أخـرى ، إلى صـخب المـدينـة ، إلى الأسواق والمحلات الـتجارية الـكبيرة ، بـعد أن مكث شـهرا فى هدوء المدينة الصغيرة .

بدأ ينـخرط مرة أخرى فى برنـامج التعريف . . . قـابل عددًا كبيرًا من الناس ، من دول مختلـفة ، شرقية وغربية ، إندمج فى فصول اللغة ومختبراتها . وكان يحب ذلك اللقاء الأسبوعى الذى

تشرح فيه المدرسة تاريخ أمريكا . لقد أعجب بهذه المدرسة إعجابا كبيرًا . كانت ذات وجه صبوح .. تحس بـالراحة حين تقع عينك عليه ، وكأنه يحييك . فإذا تحدثت معها أحسست أنك تتحدث مع صديق قديم ، تعرفه منذ زمن . كانت إبـتسامتها عريضة ، ترحب بك ، تحتويك ، تزيل إحساسك بالغربة . وكأنها نسمة هواء عليل يلفح وجهك ويداعب نفسك . كانت تلقى معلومات التاريخ على الحاضرين وكأنها تحكى قصة مسلية تثير إنتباهك .

لقد أعادت هذه السيدة الشابة إلـى ذهن الفتى مدرسا للتاريخ تتلمـذ عليه عنـدما كان فـى المرحـلة الإعدادية فى قلـب صعيد مصـر . كان هذا المدرس يـقص التاريـخ فى لغة سـهلة شيـقة . يتنقل بين الأحداث وكأنه مرشد سـياحى يقودك إلى الأماكن التى حـدثت فـيهـا الوقـائـع .. الهـزائم والإنـتصـارات ، المكـائد والمؤامرات ، البطولات والتضحيات . . . ولاتكاد تحس بالملل من تكـرار هذه الأحداث حتـى يزيل أسـلوبه الشـيق ولغـته السهـلة وحديثه الممتع مـا قد تسرب إليك من فتور ، ويحل محـله انتباها ورغبة فى الـتعرف على بقـية الأحداث وتسلسـلها والنتائـج التى إنتهى إليها .

كانت المدرسة الأمـريكية الشابة تشبه ذلـك المدرس - كلاهما

يتبع نفس الأسلوب البداجوجى . ولكن الأولى كانت تتميز بذلك الجمال الهادئ والإبتسامة الرائعة ، والقلب الذى يخيل إليك أنه يريد أن يقفز من الضلوع يرحب بك ويأخذ بيدك ويجيب عن أسئلتك .

☆ ☆ ☆

ورغم أن الفتى كان يفكر فى أهله دائمًا ، يتذكر أمه وأباه وإخوته . . . إلا أنه لم يكن يحس مطلقا بالوحدة ، أو الوحشة أو الرغبة فى العودة حالا إلى الوطن ، أو ما يسمى باللغة الإنجليزية مرض الحنين للوطن كان يجتر ذكرياته - المثيرة المتنوعة فى طفولته وصباه - ويتخذ منها زادا يعينه فى بعده وقاعدة انطلاق لمستقبله . حتى كان ذلك اليوم الذى تلقى فيه أول كتاب من أبيه . أمسك الفتى بالخطاب فى لهفة وشوق . . . دق قلبه كثيراً ، وكأنه يريد أن يثب داخل الكتاب يقرؤه ، يلتهمه ، يرتوى منه .

فض الفتى الخطاب بيد مرتعشة ، وبدأ يقرأ ما كتب أبوه . ومرت عيناه على السطور مسرعة . . وبدأت دموعة تنساب على خدية . . قطرة قطرة فى بادئ الأمر . ثم فاضت العينان بالدموع ، حتى اختلطت السطور والكلمات أمامه . . وكان

نحيبه يرتفع كلما قرأ ما كتبه أبوه الأديب البليغ : « سافرت إلى الصعيد يا ولدى بعد سفرك لأمريكا . . . وعدت بعد شهر إلى القاهرة ، ولم أجدك فيها ، وكان عهدى أن ألقاك بها تملؤها علىّ . . . كنا نحس بأننا نحن الصغار وأنت الكبير . . . اللهم حنانك ولطفك . . . كيف حالك يا ولدى . . . أوصيك بالاستقامة والصلاة . . . استمر فى مهمتك التى سافرت من أجلها حتى تتمها . . . » .

قرأ الفتى كتاب أبيه مرات . . . وبكى بصوت مسموع . . وذرع غرفته جيئة وذهابا . . . . كانت جدران الغرفة كأنها سجن صغير . . ضيق . . يكسر ضلوعة ويحبس قلبه . . إنه يريد أن يخرج من هذا الضيق ، يطير الآن ويلقى أباه ويذوب فى أحضانه ويقول له لن أتركك أبدا . وثارت في ذهن الفتى أفكار كثيرة ، متناقضة ، متشابكة . . . ولم يكد الليل يسدل أستاره ، حتى أسر الفتى فى نفسه أمرا . . . لقد قرر أن يعود إلى مصر مرة أخرى .

رباه . . هكذا سريعا ؟ ماذا يقول لإدارة البعثات . . للمسئول الأمريكى بالمعهد الدولى الذى يشرف على دراسته . ماذا يقول للمسئولين بجامعته ، لأساتذته ، لزملائه ؟ أهكذا يعود سريعا . . بعد كل العذاب الذى تعرض له ، وضياع عام كامل من

عمره فـــى إجراءات طويلة !! إن كــل هذا لايهم . . فأبـوه شيخ كبيـر . وقد أحس الفتى بـلوعة هذا الأب ، الذى بـرح به الحزن وألم الـفراق ، بعـد أن بدأ يـشعر بـالأمان ، بعـد أن كبـر ولده وتخرج فى الجامعة وعمل معيدا فيها . . . لقد اطمئن الأب ورأى أنه يجنى ثمار ما غرس ويستمتع بنتائج عمله . . . لقد جاهد كثيرا وسعـى دون كلل أو ملـل ليربى أولاده ويـعلمـهم . . لم يـخل عليهم بـشىء . . . وها هو الآن بعد أن ركن إلى الـراحة قليلاً ، يتركه إبنه الكبير . ! لاشك أنه أمر شاق .

وهل كل الأساتـذة تعلموا فى أمريـكا ؟ هل يحملون جـميعا شهادات دكتـوراه أمريكية ؟ لا . . لا . . لماذا لايستـأنف دراسته العليا فى مصر . لقد خطا خطوات جادة فى هذا السبيل ، واختار بالفعل موضوعا لرسالة الماجستـير ، كـان يستهويه فى ذلك الوقت « العـلاقات الإنسانـية فى مجـتمع المصـنع الحديث » ، مـع أحد أساتذتـه الذين أحبهـم وأحبوه وتأثـر بهم فى قاعـات المحاضرات كثيـراً ، نظرًا لرقة شخـصيته وعذوبـة حديثه وأدبه الجم وعـلمه النـافع . . . نعـم . . نعم . . ليـعد لهـذا الأستاذ مـرة أخرى ، ويستمـر فى رسالة الماجستـير تحت إشرافه . . المهم أن يـبقى إلى جوار أبيه . وإرتاح الـفتى لهذه الفكرة . . وأغمض عـينية وغاب فى سكون الليل وسكينته .

نام الفتى أو لم ينم .. وعندما قام من فراشه فى الصباح .. أحس بهدوء غريب ، لقد إستقرت نفسه قليلاً وانتظم تفكيره .. وكأن الليل قد غسل جرحه ، فانحسرت آلامه ، وبدأ يعيد النظر فى أمر عودته .. ووجد يده تمتد إلى ورق وقلم . وكتب لأبيه يشكره ويدعو له ويجدد معه العهد .

ولعل هذا الكتاب كان دافعا له على العمل ، مزيد من الجهد ، والمثابرة . لقد كان أبوه - رحمه الله - دائمًا يدفعه للأمام ، يشجعه ، يرغبه فى القراءة والبحث .. يعدد له مزايا العلم . وكان يسميه عدة مسميات ، فمرة يصفه بالسلاح ، ومرة برأس المال .. ألا يستخدمون هذه اللفظة فى أمريكا الآن ! رأس مال المعرفة ، رأس المال الذكى .!! كان يذاكر مع ابنه ، يقرأ معه ، يراجع دروسه . لقد كان دائمًا أستاذا له ، مرشدا وناصحا ومقوما ومعينا . وبعد أن تخرج الإبن فى الجامعة ، ظل الأب إلى جواره .. يدفعه ، يرشده ... كان يأمره بالإستقامة وتقوى الله ... كان يحكى له عن حياته الماضية ، ينقل له خبرته ، يشرح له نظراته فى الحياة والعلاقات والمعاملات . كان يحب أولاده حبا جارفا . كان كالصخرة القوية تسند إليها ظهرك فتحميك ... كم يفتقد الإبن أباه !! ولكن هكذا الحياة ، التقاء وفراق ، ظعن وإقامة ، سعادة وآلام .. ولابد للإنسان أن يسعى

ويسـافر ويهاجـر إذا لزم الأمر . ﴿ هـو الذى جعل لـكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ صدق الله العظيم .

☆ ☆ ☆

دار الفصـل الدراسى دورته ، وأتم الفتـى دراسته التمهـيدية والتعريفية . . وحصل من اللغة الإنجليزية ما يؤهله الآن للدراسة العلمية المتخصصة . ذهب الفتى إلى جامعته الجديدة . . استقبلته مرشدة الطلاب الأجانب . . رحبت بـه . . تمنت له طيب الإقامة ونجاح المسعى . عرفـته بقسيس كاثوليكى . . دعاه الأخـير للعشاء فى كنيسة الجامـعة حيث يقيم . ذهب الفتى إلى مـقر القسيس . وأقبل عـليه هذا مرحـبا . جلسا إلى مـائدة الطعام . قـال القس للفتى : لقد أخـبرت الطاهية أن شابا مسلما سيتـناول عشاءه معنا الليـلة ، فلا تقدمـى لحم الخنزير . تحـدث القس طويلاً والـفتى يسمع . . تكلم عن الحب الذى يـجمع الناس . . سأل الفتى عن أحواله وبعثته الدراسية وتمنى لـه التوفيق . شكره الفتى ، وإفترق الإثنان وقـد أصبحا صـديقين . كان الـفتى يقـابله بعـد ذلك فى الجامـعة ويتـبادل معه حـديثا وديا ويـطمئن الإثـنان على أخـبار بعضهما .

٣

الدراسة ...

إذا داع دعاك لرشد أمر

فلـب ولايفتك له اتباع

☆ ☆ ☆

قم للمعلم وفيه التبجيلا

كاد المعلم أن يكون رسولا

وانتظم الفتى فى فصوله الدراسية الجديدة ... المتخصصة هذه المرة . إنها تختلف كثيراً عن فصول اللغة الإنجليزية . فهذه تفيض بالمتعة والإثارة ، أما الفصول العلمية فتزخر بالصعوبات وتمتلأ بالواجبات ، والإختبارات ، والمناظرات ، والمناقشات مع الأساتذه والزملاء .

أحس الفتى بالرهبة أول الأمر .. إنه يتابع الأستاذ ويفهم كثيرا مما يقول ، ولكنه قلق ، هل سيستمر ، وينافس أقرانه ! وخاصة عندما كان الأستاذ يوجه إلى تلاميذه أسئلة ، فيهب الطلاب الأمريكيون للإجابة . كانوا يتكلمون الإنجليزية بطلاقة .. شيء طبيعى .. أو لايتكلمونها كما كان يسخر منهم مؤلف رواية سيدتى الجميلة ليظهر اعتزازه بالإنجليز وتفوقهم اللغوى ، فيقول : إن الأمريكان لم يتكلموا الإنجليزية منذ سنين . كان الفتى ينصت لأسئلة الأساتذة بتركيز شديد ، وينصت كذلك لإجابات زملائه ... ربما كان بعض هذه الإجابات خطأ ، أو حتى معظمها ، ولكنها السرعة والطلاقة التى يتكلمون بها .. أنها لغتهم ، لايجدون فيها مشقة كتلك التى يجدها الفتى عندما يجيب أو يحاول التعبير عن نفسه ، ولو أن لغته كانت أفضل بكثير من لغة بعض زملائه الأجانب - كما أخبره مدرسو اللغة . ولكنه كان يتردد فى الإجابة فى بادئ الأمر . وكان الأساتذة

يستحثونه ، وأغلبهم يشجعونه ويدفعونه إلى الأمام . .

كذلك الأستاذ الذى تأثر به كثيرا ، والذى كان شديدا ، جاد الملامح ، جامد التعبير ، ثرى المعلومات . كان يضع أمامه مفكرة صغيرة ، كتب فيها أسماء الطلاب . . وكان إسم الفتى فى أول القائمة . كان الأستاذ يقرأ إسم الطالب ، ثم يفجأه بالسؤال . . . وكأن الأخير مصيدة تطبق على رأس الطالب فيدوخ ، ويفكر ، ويجيب ، أو لايتمكن من الإجابة . وكان الأستاذ يغضب من عدم الإجابة أو التردد فيها ، ويفرح للإجابات الصحيحة ويشجع أصحابها . كان الفتى يرى أن هذه الأسئلة صعبة أول الأمر . . . وبعد أن يفكر فيها يجد الإجابة عنها سهلة ممكنة .

تعلم الفتى من هذا الأستاذ وحده فى فصل دراسى واحد ما تعلمه من عدة أساتذة فى عدة فصول . كان يبدأ درسه بسؤال ، أو يثير قضية يناقش الطلاب فيها . انظر كيف يتبع هؤلاء الناس مبادئ ديننا الحنيف دون أن يعرفوها . فقد كان النبى ﷺ كثيراً ما يبدأ الحديث مع صحابته الأجلاء بالسؤال : هل أدلكم على ؟ . . هل تدرون ؟ . . ألا أخبركم . ؟ فكان يشحذ الفكر ويعهد الأذهان للتلقى ويثير الدافع لسماع ما يأتى من حديث .

وكان هذا الأستاذ يكلف تلاميذه بقراءة عدة مراجع ، ثم

عرضها فـى قاعة الدرس ، ثم مناقـشتهم فيها . وقـد كان المرجع الذى كلف هـذا الأستاذ الفتى بقراءتـه كتابا رائعا عن شـخصيات الموظفين والمنظمات التى يعملـون فيها . قرأ الفتى الكتاب ، سهر عدة ليال يستوعبه ويلخصه ويستخلص الدروس المستفادة منه . ثم عرضه فى قاعة الدرس على الأستاذ وبقية الطلاب . كان العرض جيـدا ، والتلـخيـص وافيا . . وبـدا إعجاب الأسـتاذ والـطلاب واضحا . . .

ولكن ! جاء وقت الأسئلة . سـأله الطلاب فأجاب ، وسأله الأستاذ فأجاب . ثـم سأله الأستاذ مرة أخرى سؤالا لـم يعمل له حسابا . قال له : ما رأيك فيما يقـوله مؤلف الكتاب ؟ يسأله عن رأيه فى مؤلـف كبير تدرس كتـبه بالجامعات ! كـيف ذلك ؟ تردد الفتى . مـاذا يقول . . يتفق ، يـعارض ، يسكت ، يقـف على الحياد . . . هل يمكن أن يعارض مؤلفا كبيرا !

أعاد الأستاذ سؤاله . . وبدا عليه الضيق . . ها هو قد انتظر قليلا ولكـن صبره نفـد . تـكلم الفتـى . . قـال رأيه واضحا بطـيئـا . . . حـاول أن يبـدو واثقا وإن كـان متـرددا . . إرتاح الأستاذ ، ورصـد فى دفتره درجـة أو علامة غامـضة لم يعـرفها الفتـى فى حينـها . ولكنـه حصل فى نـهاية الفـصل على تـقدير

«ممتاز» من هــذا الأستاذ الذى أصبح صديقا وأخا كبـيرا له فيما بعد . . يشجعه ويدفعه للأمام .

ومرة سـأل هذا الأستاذ تـلاميذه سؤالا ، كـان الفتى يـعرف إجـابتـه . ولكـنه نـظر إلـى رفاقـه فوجـدهم صـامتـين . لماذا لايتكلمـون ؟ لابد أن الإجابة شىء آخر غير التى يـعرفها . . ربما كان الأستـاذ يبحث عـن إجابة أخرى مـعقدة . وصمـت الأستاذ برهـة ، ثم كـرر سؤالـه ، وكرر الطـلاب صمتـهم . فغـضب الأستاذ . . . ولـم يجد الفـتى مفرا مـن أن يرفع يده . . وألـقى إجابته جملة واحدة ، حرص على أن تكـون منظمة صحيحة كما أسعفته لـغته ، والمعلومات التـى حصلها من أساتذتـه المصريين ، العـمالقة الآخـرين الذيـن يكـن لـكثيـر منهـم كـل ود وحـب وإعجاب . . وإن كـان آخرون منهـم لم يتركـوا فـى نفسـه أثرا كبيرا . . . وهـكذا الناس فى كل مـكان ، يوجد منهـم الثمين ، والمتوسط ، والفقير .

صمت الأسـتاذ برهة ، وظن الفـتى أنه لم يصـب الهدف . ونظر الأستاذ إلى بقية الطـلاب وقال لهم بالحرف الواحد : « هذا طالـب جاء مـن أعالـى البحـار لكى يشـرح لكم إجابـة هذا السؤال » . خـجل الفتى لحظـة ، وأحس بالزهو لحـظة أخرى ،

وأثارت العبارة فى نفوس الطلاب الآخرين مزيجا من الإعجاب والتقدير وبعض الغيظ أيضًا . أما الفتى فقد شعر بعد ذلك أنه يقف على أرض صلبة . . كان هذا السؤال نقطة تحول . . إشارة خضراء للفتى أن ينطلق . . الطريق أمامه . . مفتوح ، ممهد قليلا ، ولكنه أيضًا صعب ، يحتاج إلى كل يقظة وإستعداد .

وكان كلما سأل الأستاذ بعد ذلك سؤالا تحفز الفتى للإجابة ، ونظر الطلاب إليه كأنهم يتوقعون أن تكون لديه الإجابة الصحيحة . وقد قال له أحد الطلبة الأمريكان ينحدر من أصل إيطالى ، وكان معه فى هذا الفصل ، وفى فصل آخر أيضًا . . قال له مداعبا : إنك فعلا تحب موضوع تخصصك . . نعم إن حبك للشيء يمدك بحماس يجعلك تحاول أن تتقنه .

تأثر الفتى بأستاذه هذا كثيرا ، وأعجب به كثيرا . . كان عملاقا فى نظره . . كان يدخن سيجارا قصيرا ، ولكن رائحته تمتد لمسافات طويلة . كان هادئ الحركة يبدو عليه التركيز الشديد والإهتمام بما يقول . . . كان واثقا من نفسه ، وكان يريد من طلابه أن ينهلوا من العلم ما يستطيعون . . لم يكن يتهاون فيه . . لم يصبر على الصامتين . . يظل وراءهم إلى أن يفكروا . . يتكلموا . كان يضايقه أن يتخلف طالب عن حضور

درس واحد . غـاب الفتـى مرة عن درس هـذا الأستاذ ، فـسأل الأخير عنه بعد أن نادى إسمه ولم يسمع ردا . سأل بقية الطلاب عنه : هل ترك الدراسة . وهرع طالب كـورى يخبر الفتى بما قال الأستاذ . وذهـب الفتى إلى الـدرس التالى وربمـا لم يتغيـب بعد ذلك عن درس إلا نادراً .

لقد كانت عـادته الإنتظام منذ الصغـر . هكذا عوده أبوه . . ولماذا الغياب ؟ كان أبوه - المعلم والأسـتاذ القديم - يكره الغياب حتى لـو كانت هنـاك أعذار . يذكر الفـتى أنه أراد أن يغـيب عن المدرسة يوما وهو صبى صغير . وذلك يوم « سبوع » أخيه الوليد الجديد . كان هناك احتفال كبير تجتمع له النساء والأقارب يبتهجون ويغنون ويهنئون ويدعون الله أن يحـفظ الوليد . وعز على الصبى أن يتخلـف عن هذا الحفل . . أراد أن يحضره مـن أوله . . فهو يرى من الصباح الباكر حركة غيـر عادية فى البيت الكبير . . لابد أن شيئًا فخما تعده النساء والخدم اليوم . . سأله أبوه فى حنان عن سبب غيابه . قال له إنه يحس بألم فى معدته ، ولكن أمه عرفت السبب الحقيـقى وأسرت به إلى أبيه . فربت أبوه عـلى كتفه فى حنان فياض وقال له : سنرجئ الحفل حتى تعود من المدرسة .

إستمر الولـد على عادة الإنتظام . . ولم يتـخلف عن دروسه

فى المدرسة إلا عند المرض . وكانت المـدارس تعزز قواعد الإنتظام وتضبط المتخـلفين . وكان الولد يرى بعض زملائه يـتخلفون عن درس أو آخر . . كمـا كان يرى بعـضهم يتـسلق سور المـدرسة ، فيلقى الواحد منهم حقيبة كـتبه خارج المدرسة ، ثم يتعلق بأعمدة السور كأنه القـرد ، حتى يعتلى حائط المدرسة ، ثم يـقفز بسرعة خارجها ويـسعى خفيفا حـتى لايمسكه مدرس الألـعاب أو مشرف المدرسة أو غيرهما ممن يناط بهم حفظ النظام . لم يحاول صاحبنا أن يقلد هؤلاء . . . ربما فكر فى هذا يوما ، ولكنه لم يجرؤ على الغـياب أو تـرك المدرسـة وإنما حرص عـلى أن يـكون دائـمًا فى صفوف التلاميذ الحاضرين يتلقـى معهم من العلم ما شاء الله لهم أن يتلقوا .

استمـر الفتى علـى ذلك حتى عنـدما ذهب إلى الجامـعة فى القاهرة . . غيـر أن أحد أصدقائه حاول أن يغيـر له هذه العادة . كان هذا الصديق شابا ينحدر من أسـرة عريقة ، يمتلك أبوه مصنعا كبيرًا ، وقد أعد أولاده ليعملوا فى هذا المصنع . غير أن الحكومة أممتـه بعد ذلـك ، فانصرف الأولاد إلـى مشروعـاتهم الخـاصة ، وحققوا فيها نجاحا كبيرًا .

عندمـا رأى هذا الصديق الفـتى يحرص على حـضور دروسه وينصت للأساتذة ، بدأ يخبـره أن هذه المحاضرة غير هامة ، وأنه يمكـن أن يذهـــب معه إلى السيـنما . وأخـذ الفتى مـعه مرة تلو المرة . . هــذا فـيلم مـسل ، وهـذه قصـة جيدة . . هـذا فيـلم مغامرات . وتخلـى الفتى قليلا عن عادة الحضـور . شجعه على ذلك كبر أعـداد الطلاب ، وضخامة مدرج المحاضـرات وإحساسه بالضياع وسط هـذا الحشد الكبير ، وتغيب بعـض الأساتذة أحيانا وتأخرهم أحيانا أخرى .

ولكـن الفـتى عـاد إلى الإنـتظام مـرة أخرى فــى مجـتمـعه الأمريـكى الجديـد . أثارتـه جدية الـناس من حـوله ، والإيـقاع السريع الذى تجرى به الحياة . وحرص الأساتذة قبل الطلاب على تحصيل العلم ، والإنجاز ، والنجاح . ألـم يوصينا رسولنا الكريم ﷺ بهذا : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » . إن معظم الناس الـذين إلتقى بهم الفتى فى جامـعته وخارجها ، كانوا علـى مستوى عال من الجـدية . ولم يكن جدهـم فى نفس الوقت يمنعهم من أن يأخذوا حظهم من اللعب ، واللهو فى وقت الفراغ . كانوا يجيدون كل شىء ، العمل واللعب على السواء .

تأثـر الفتـى إذن بأستـاذه هذا الذى كـان من أوائل الأسـاتذة

الذين تلقى عنهم العلم ، لقد أعجب به وأحبه . وقد قال له هذا الأستاذ بعد مرور أكثر من سنة ، وبعد أن تتلمذ عليه مرة أخرى في برنامج الدكتوراه : رباه . . . انظر كيف تغيرت . . أذكر عندما جئت أول مرة ، وأقارن حالك الآن . . . إنك تجيد التعبير ، تثق في نفسك ، تقبل على العلم ، إستمر على هذا المنوال . كما أبدى أستاذ آخر إعجابه بالفتى وسماه « المنجز » . . إنه مجتمع المنجزين - كما يطلق عليه مكليلاند ، المجتمع الذى يستوعب الجادين ويفسح لهم مكانا رحبا ويتيح الفرص لهم للإبداع حتى يحققوا النتائج التى يسعون إليها . . . أما المتخاذلون ، المتقاعسون ، فلا مكان لهم . . يلفظهم هذا المجتمع . . . يضيق صدره بهم ، يسقطهم من حسابه تمامًا .

وكذلك أعجب الفتى بأستاذ آخر . . طويل القامة ، هادئ الطبع ، ترتسم على وجهه ابتسامة جادة ، أو جد باسم . كان يدير حلقة الدراسة ببراعة . كان الدرس عبارة عن قراءات يجريها الطلاب فى منازلهم والمكتبات ، ثم يناقشونها فى قاعة الدرس وينصتون إلى توجيهات الأستاذ . وكان هذا يتابع المناقشات بعقل مفتوح ، ويحرص على إفادة الجميع . يلقى معلوماته عليهم ، سهلة بسيطة ، ويوجههم لأخطائهم . . . وكان يكلف الطلاب

بهذه الواجبات . . . فرادى وفى جماعات . فكان يشرك إثنين أو ثلاثة فى فريق عمل واحد ، يقرأون كتابا أو بحثا . . ثم يحضرون إلى قاعة الدرس ويتولون عرضه على الآخرين ، ثم يجيبون عن أسئلتهم وأسئلة الأستاذ . . . .

كم كانت هذه الدروس تذكر الفتى بالأسلوب الأزهرى فى التدريس . . . حيث كان الشيخ يجمع تلاميذه حوله . . . ويستند إلى عامود ، يلقى عليهم الدرس ، ويسألونه ويتحاورون . . . وكانت ساحة الأزهر تعرف بعواميدها ، هذا عامود الشيخ فلان . . وذلك للشيخ فلان . . أجمل شىء أن يلتف الناس فى مجلس للعلم ، يسمعون ويناقشون ويفكرون . . . هذا شىء نفتقده فى جامعاتنا ، حيث الأعداد كبيرة ، فلا تتاح الفرصة للطالب أن يكلم أستاذه ، يسأله ، يستزيد من علمه ، يطلب منه مراجع أكثر . . . لقد شعر الفتى خلال بعثته أن الأساتذة كانوا أصدقاءه ، إخوة كبارا ، أو آباء . . ساعد على ذلك بالتأكيد صغر أعداد طلاب الدراسات العليا وخاصة فى برنامج الدكتوراه . . . لقد حضر الفتى دروسا كان فيها ثلاثة طلاب فقط هو أحدهم . . . وكانوا يتداولون نكتة مفادها أنه لو غاب واحد منهم فقد غاب ثلث الجماعة . كما حضر درسا آخر كان هو الطالب الوحيد فيه . . . وقد سعد بهذا الدرس كثيراً ، فقد شعر

فيه بالتميز « والخصوصية » . كان الأستاذ يجلس معه في مكتبه ، يعطيه توجيهاته ، يكلفه بقراءات وبحوث ، ويناقشه فيما قرأ وبحث .

نال كثير من الأساتذة - أمريكين وصينيين ومصريين وكنديين - إعجاب الفتى وتأثر بهم كثيراً . ومن جهة أخرى بقدر ما أعجب بهؤلاء ، فإن فريقا آخر لم يترك في نفسه أثرا ، أو أحدث أثرا سلبيا . كانت لهم أخطاؤهم - الشخصية أو التوجيهية . كذلك الأستاذ الذى كان يدرس مادة الإحصاء . كان يعجب بنفسه كثيرا ، يمشى مختالا ، يتعالى على الطلاب ، يتتبع أخطاءهم ، يحب إيقاعهم فى مآزق ، يضيق عليهم الخناق ويبدو أنه يستمتع بمعاناتهم وطلبهم للنجاة . لقد أطلق عليه الطلاب الأمريكيون - زملاء الفتى فى الدراسة - لقبا معينا . فلا يذكرونه باسمه عندما يتكلمون عنه وعن المادة التى يدرسها أو الواجبات التى يكلفهم بها . ولكنهم يتعارفون عليه بهذا اللقب . ولايرد ذكره حتى يتذمر البعض ، ويتندر البعض الآخر ، ويتغامز كثير منهم .

كما أن أستاذا آخر كان الفتى يغتاظ من محاضراته كثيرا . . . لقد كان ضعيف المعلومات ، قليل الرغبة فى إلقاء العلم ، لايهتم بطلابه . وكان أحيانا يجيب بلا أدرى إذا سأله طالب سؤالا .

وكانت هـذه الإجابة تضايـق الفتى بشـدة . صحيح أن كثـيراً من الأمور لايـعلمهـا الإنسان . ولكـن هذا يقـف موقف المعـلم . . مصـدر المعلـومات . . ينـتظر الطـلاب منه الـعلم ، يـريدون أن يهديهم إلى المعرفة . . . يمكـن أن يقول لا أدرى بالنسبة لسؤال أو إثنين . . ولكـن ليس معظم الأسـئلة . وحتى إن كان لايـعلم ، فيمكن أن يوجه الطالب إلى مصدر آخر ، مرجع ثان . . .

أساتذة كثيرون تتلمذ عليهـم الفتى . . من أجناس مختلفة ، معظمهم أمريكيون . حرص الفتى أن يأخذ عنهم العلم ما إستطاع لذلك سبيلا . . ولم يكن يتخلف عن محاضرة إلا نادراً . ويذكر الفتـى بكل الود ذلـك الأستاذ الذى درس مـعه مادة « جمـاعات العمـل الصغيرة » . لـقد كان أستاذا متـدفق المعلومـات ، ناضج الشخصـية ، معبرا ودودا . لم تقـتصر علاقته مع الـطلاب على قاعة الدرس . كان يلتقى بهم فى مكتبه ، وفى كافتيريا الجامعة . كانـت هذه عادة مـعظم الأسـاتذة ، يـجلسـون مع الطـلاب فى الكافتيريـا . يسمرون مع أكواب القهوة وخلال الـغذاء . يتبادلون ليس فقـط العلم والمعـرفة ، ولكن يتكـلمون فى كثيـر من أمور الحياة .

كان هذا الأسـتاذ واحدا منـهم . وكان يحـب العرب ويعـنى

بشئونهم . . . وكان واسع الإطلاع عن مصر وحضارتها القديمة ، كان أكثر أصدقائه من العرب . كان طيب المزاج ، حاد الذكاء ، سريع النكتة . أما فى قاعة المحاضرة . . فكان يغمر طلابه بالمعلومات . كان يتكلم زهاء الساعة دون كلل أو توقف ، وكأنه شلال انحدر فجأة من صخرة عالية . كانت أنظار الطلاب تتعلق به ، ولايفقد أحد انتباهه . وكان الفتى يلتهم كلامه إلتهاما ، يستوعب كل كلمة يقولها ، أو يكتبها على السبورة ، ويظل مشدوداً للدرس لايكاد يشغله عنه شيء .

وكان يشبهه فى ذلك أستاذ آخر ، صينى . تتلمذ الفتى عليه فى مادة أخرى للإحصاء . كان هذا الأستاذ طويل القامة - أطول صينى رآه الفتى فى حياته - مبتسم الوجه واثقا من نفسه . تتلمذ الفتى عليه مرتين ، واحدة فى الماجستير والأخرى فى الدكتوراه . كان الأستاذ يلقى معلوماته على الطلاب كأنها طلقات الرصاص ، توقظهم تدوشهم ، تثير فى نفوسهم الرغبة للمعرفة . كان يملأ السبورة أرقاما ومعادلات . كان يتنقل بخفة بين السبورات العديدة التى تغطى حوائط القاعة ، يرشق الأرقام عليها جميعا ، ويوصلها بالرموز الرياضية المختلفة . وكأنه رسام ماهر يخط بريشته لوحة رقمية رائعة . أو كأنه فنان فى مسرح للعرائس . يحرك الرموز الجامدة لتحكى قصة مثيرة . أو كأنه موسيقى بارع اختار النوتة

من الأرقـام والمعادلات ، ليـؤلف سيمـفونية صـاخبة تهـزك هزا وتعصر فكرك عصرا .

كان أول درس يلقيه هذا الأستاذ على تلاميذه فى أول لقاء ، عبـارة عن إمتحـان . يستقـبله الطـلاب واجمين . هل هـذه هى البداية ؟ ولايفهـم الطلاب هذا الإمتحان الغريب ، ويـرسبون فيه جميـعا ولكن بـدرجات متفـاوتة . إنه إمتـحان إستطـلاعى . . . اختبار للقدرات الرياضية والإحصائية لدى هؤلاء الطلاب . شرح الأستاذ وجهة نظره فى ذلك فيما بعد - عندما ارتقى الفتى لمرحلة الدكتوراه - بأنه يريد من الطلاب الصنف الجاد فقط ، الذى يقبل التحـدى ولايهزه الرسـوب الأول . وهذا ما يتـعارف عليـه أطباء الجسم والنفس مـن العلاج عن طريق الصدمة . فهـم الفتى ذلك عنـدما كان يرى كـثيراً من الـطلاب يتـركون مادة هذا الأسـتاذ ، وكأنـهم أوراق جافـة تتسـاقط عن شجـرة كبيـرة - كانوا يـفرون بأجسامهم وعقولهم . وكانـت إحدى زميلات الفتى فى هذه المادة متخـصصة فى الرياضـيات ولكن بعـد إخفاقها فى أول اخـتبار ، تركت المادة وهـربت . . . أصابها الإحباط ، وخشـيت أن ترسب مرة أخرى . ولولا أن هذه المادة كانت مـن المواد الملزمة التى لابد أن يدرسها الفتى لتركها أيضًا ومضى لمادة أخرى مع أستاذ غيره .

وهذا أستاذ آخر ، اضـطر الفتى أن يتتلمـذ عليه ، لأن المادة التى يدرسها أيـضًا ملزمة . كان يبدو على الأستـاذ أنه لايميل إلى الأجانب كثـيراً . كان ينظر إلى الـطلاب نظرة فوميـة . كان غزير المعلومات حسـن الإلقاء معبرا . ولكنه متجهـم الوجه ، لم يكن يبتسم أبـدا . وكأنه جاء إلى المحاضرة مرغما . . كـان لاينظر إلى محدثه كثيراً وكأنه يتحاشـاه ، وإذا نظر إليه فمن ركن عينه . كان إذا سأل أحد طـلابه سؤالا فكأنه يـتحداه أو يعاقبـه . فإذا أجاب الطـالب لم ترضـه الإجابة . . . وإذا أرضتـه فلا يظهـر رضاه . وكأنه يريد أن يخطئ الطالب فيصـب عليه غضبه . لم يرتح الفتى لهذا الأستاذ مـنذ اللحظة الأولى ، ولم يـرتح له الأستاذ أيضًا . كان الـشعور مـتبادلا . حـرص الفـتى علـى الحضور ، وإكـمال الواجبات وأداء الإخـتبارات ، حتى نجح وتخلـص من هذه المادة التى لم تكن تثير إنتباهه كـثيرًا ، حتى عندما كان في مصر . كان يتجرعها ولايكاد يسيغها .

كان الفتى يقبل علـى المحاضرات وقاعات الدرس بروح وثابة للعـلم . . . وكان يعجب كـثيراً بالأساتـذة الذين يحبون طـلابهم ويقدمون لهم الـعلم والمعرفة عن طيب خاطر ، وكـأنهم يقدمون لهـم الهـدايا . . كمـا كان يعـجب بالأساتـذة الذين يـحاورون الطلاب ، يسألونهم فيجيبون ، يصيبون أو يخطئون ، فيوجهونهم ويرشدونهم لمزيد من المعرفة .

كان الفتى يحب قاعات الدرس الصغيرة . . . التى يجتمع فيها عشرون طالبا أو يزيدون قليلا . . . كانت قنوات الإتصال مفتوحة بين الأساتذة والطلاب ، وبين هؤلاء وبعضهم . . . كانت هناك فرص كبيرة لأن يسأل الطالب عما يريد ، يستفهم . . يستفسر . . يستزيد . كما كان الأستاذ يسأل بدوره ، ويعرف رد الفعل عند طلابه . . . ويقيس قدراتهم . .

يذكر الفتى بكل الخير الأستاذ الذى تتلمذ عليه فى إحدى المواد التى كان يحبها كثيراً . كان الأستاذ هادئا ، واثقا ، يدخن الغليون ، ويتكلم ببطء ، يثير فى كل مرة يدخل فيها قاعة الدرس قضية يكثر حولها الجدل وتختلف الآراء . . . ويذكر وجهات نظر الكتاب والباحثين حولها ، ويسأل الطلاب عما يرون فيها . . . ويتكلم الطلاب ، فيستمع إليهم بهدوء .

وفى إحدى المرات كان هذا الأستاذ يناقش مع تلاميذه العلاقة بين المصانع ونقابات العمال ، والدور الذى تلعبه الأخيرة فى حياة العاملين . وقام الأستاذ إلى السبورة ورسم مربعين كتب على الأول الإدارة ، وعلى الآخر النقابة ، ثم رسم مربعا ثالثا فوقهما وكتب عليه الإضراب ، مشيرا إلى أن العنصر الذى يحكم علاقة الطرفين هو إضراب العاملين أو إغلاق الإدارة للمصنع . وتعجب

الفتى من هذا الشكل البيانى . ورفع يده ليدلى بدلوه ، وقال : لماذا لايكون المربع العلوى هو التفاهم والتعاون يجمع الطرفين ويوفق بينهما ويوحد جهودهما نحو هدف مشترك .

ضحك الطلاب وإبتسم الأستاذ وحار الفتى . ونظر الطلاب لبعضهم ثم للفتى ، والأستاذ . . . ولسان حالهم يقول إنه لايعرف عاداتنا وطريقة حياتنا . وقال له الأستاذ : إن الإضراب جزء من ثقافة هذا المجتمع . فهم الفتى ذلك جيداً فيما بعد . . . فهذا إضراب عمال فى مصنع معين ، وهذا إضراب لعمال صناعة بأسرها . وهؤلاء هم العمال المضربون . . . يقفون أمام مصنعهم فى صفوف يعلقون لافتات تعلن إضرابهم عن العمل . . . وللمضربين مطالب . . . ولأصحاب الأعمال ردود أفعال . . . أنها لعبة ، ربما كسب فيها طرف على حساب الآخر ، أو خسر الإثنان . قال الأستاذ إنها تشبه لعبة البوكر ، لها تحركات وتكتيكات . . . كل طرف يحاول أن يوهم الطرف الآخر أنه يتحرك من منطلق قوى ، وأن فى جعبته سهاما يمكن أن يوجهها إلى خصمه فى الوقت المناسب .

إذن فهو أسلوب حياة لدى الأمريكان . . . وقد شهد الفتى ألوانا من الإضرابات . فأيام حرب فيتنام ، كان الإضراب إحدى

الوسائل التى لجأ إليهـا الناس ، نساء ورجالا ، أفرادا وعائلات ، ليعبروا عن استيائهم من هذه الحرب الطويلة ورغبتهم فى وقفها . فاختاروا ما أسموه الإضراب الصـامت . . . يقف الناس ساعة أو يزيد ، لايصخبـون ولايهتفون . . . وإنما يحملون لافـتات تطالب بإنهاء الحرب وحقن دماء الجنود .

كما كان الإضـراب الشهير لعـمال القمامة . كـف هؤلاء عن جمع القمامة وحملها بعـيدا عن المنازل والطرقات . . . فكنت إذا مشيت فى شوارع نيويورك ، المدينة التى يقصدها سياح العالم من كل مكان ، ترى أكواما كبيرة من القمامة ، ليلا ونهارا . . تتكاثر بمرور الوقـت . . . وتتعرض للشـمس والهواء والمطر . . وتـرتفع رائحتها التى تزكم الأنوف . . إلـى أن جاء الحرس الوطنى وانتشر فى الأحياء يجمعها . . الجيش يجمع القمامة !

أسلـوب حيـاة نعم . . . ولـكن لماذا . . ألا تـوجد وسـائل أخرى للـتعبير عن الـغضب والحصول علـى المطالب التى يـريدها العـمال . هـذا هو مـا اقتـرحه الـفتـى - الطـالب الـذى يدرس للماجـستير - لأستاذه فى قـاعة الدرس . أن يحل التفـاهم محل النزاع ، والتعاون محل الإضراب .

ولـم يكن يدور بخلد الفتى أنه سيقرأ بعد ذلك بسنوات - بعد

حصوله على الدكتوراه واشتغاله أستاذا ومؤلفا - لأحد الكتاب الأمريكيين الذين يحب قراءة أبحاثهم وقد تأثر به كثيرا . . . سيقرأ لهذا الكاتب رأيا جديدا . وهو أن النقابات العمالية قد أثبتت وجودها ، وأسست تنظيماتها ، وحصلت على اعتراف الإدارة والحكومات بها . فلماذا لاتكون هناك وسيلة أخرى غير الإضراب . . . وسيلة هى التعاون والتفاهم واستعداد الطرفين لحل المشكلات المتنازع عليها . . . نفس الجملة التى قالها طالب صعيدى صغير قبل خمسة عشر عامًا !!!

كما أثار إنتباه الفتى مادة أخرى للإحصاء . . درسها له أستاذ كندى أعجب به الفتى كثيرا . كان الأستاذ يكلف طلابه بالواجبات الرياضية المختلفة ويطلب منهم أن ينجزوها على الكمبيوتر . ثم يحضرون لقاعة الدرس يعرضونها ويناقشونها . وعرف الفتى الكمبيوتر لأول مرة . . . كان جهازا ضخما يقبع فى البهو الكبير بمركز الحساب الآلى بالجامعة . . . أسطول يصطف إلى جوار بعضه وكأنه جيش من الوحوش . إلا أنها وحوش أليفة لاتبطش بمن يقترب منها ، وإنما ترحب به ، تتكلم معه ، تقضى حاجته . اقترب الفتى من الكمبيوتر دون خوف ، ولماذا يخاف الناس من الآلات ؟ ، تعامل معه بحب ، طفت غريزة حب الاستطلاع عنده على السطح ، أراد أن يكتشف أسراره ،

كيف يعمل ؟ ما هى لغته ؟ كيف يجيبه إذا سأل ؟ عالج الفتى هذه الأسئلة بنفسه واسترشد بخبرة زملائه . . وارتاح إلى الكمبيوتر ووجد فيه صديقا مطيعا ، وأنس إلى صحبته حتى أصبح ينتظر اليوم الذى يذهب فيه إلى مركز الحساب ، لينجز واجبات الأستاذ الكندى ثم بحثه للدكتوراه بعد ذلك .

وكان الفتى يقابل زميلا له كوريا ، كلما ذهب إلى هذا المركز أو عاد . وكان يثير الفتى أن هذا الكورى يحمل كثيرًا من صحائف الكمبيوتر ، حتى ليكاد ينوء بحملها . ويتفقد الفتى أوراقه ، ويتأكد من صحة بياناته ، ويراجع حلوله للواجبات المعطاة لهما . ثم يسأل زميله الكورى : أليست أوراقك هذه حلولا للمسائل التى كلفنا بها الأستاذ ؟ ويجيبه زميله بالإيجاب . ولكن لماذا تحمل كل هذه الأوراق ؟ يخبره الطالب الكورى أنه لم يكتف بالواجب الذى كلفهم به الأستاذ الكندى ، فبحث عن مسائل أخرى مشابهة ومختلفة ، ودرسها وحلها جميعا ، طائعا مختارا راغبا فى مزيد من العلم مقبلا على مزيد من الجهد .

انظر كيف تفكر الشعوب ، تثابر - بيضاء وصفراء وحمراء - تتسابق للفوز . فهم الفتى سلوك هذا الكورى بعد ذلك بسنوات ، عندما رأى نهضة كوريا - أحد النمور الآسيوية

المتحفزة . . . وعـندما شاهد الكوريين فى دول الخلـيج العربى ، يعملون بهمة ونشاط ، وكأنهم فى معسكر كبير . . . وعندما رأى منتجاتهم المختلفة يستخدمها المستهلكون فى شتى بقاع العالم .

إنها الجدية التى تتميز بها شعوب اليوم . . التى تريد أن تأخذ بأسباب التقدم وتلحق بالركـب . . . التى تريد أن تتنافس وتصارع الأمم التى سـبقتهـا وتتفوق علـيها . من لايـتقدم يتـقادم ، ومن لايركض يتقهقر ، ومن لايظهر يتوارى عن الأنظار . . . لا مكان اليوم للمتخلفين .

٤

النجاح ...

﴿ وكان فضل الله عليك عظيما ﴾

سورة النساء ١١٣

☆ ☆ ☆

استعن بالله ولا تعجز

حديث شريف

تعرض الـفتى خلال دراسته لـصنوف من الإختبـارات وفنون من الإمتحانات . كان الامتحان أشبه بالنشاط اليومى . نبهه لذلك صديق مصرى مخـلص ، قابله الفتى فى أوائل أيـامه بالجامعة . قال له الصديق ناصحا : توقع الإمتحانات هنا يوميا ، كن مستعدا لها . إذن فـالامتحان جـزء من العملـية التعـليمية يـتكامل مـعها ويعززهـا . . وليس آخر المطاف . ومـن ثم لايتم تقويم الـطالب على أساس الإمـتحان النهائـى فحسب . وإنما خلال الإمـتحانات المختلـفة للمادة الـتى يدرسها ، بالإضـافة إلى مقايـيس أخرى ، كالأبحـاث والمساهمـة فى النقـاش وحضور الطـالب الذهنـى قبل حضوره البدنى .

خاض الفتى عديدا من الإختبارات . . . كان كل اختبار خبرة فى حد ذاته لايستهـان بها . فرصة يتعلم فيها الـطالب كيف يرتب أفكاره ، يعرض معلوماته ، يجيـب عن الأسئلة المطروحة ، يعبر عن آرائه ، يمارس ذكاءه ، يقنع الممتحنين أنه يستحق النجاح .

فكان الإمتحان التقليدى الذى يسـتلم فيه الطالب ورقة تمتلئ بالأسئلـة يجيب عنها واحـدا بعد الآخر . . . وقد تخـتلف صور هذه الأسئلـة . فمن السؤال المباشـر الذى يطلب من التـلميذ أن يردد ما تعلـم ، ويسرد ما قرأ فى نسق معين . . إلـى السؤال غير

المباشر أو الذكى ، الذى لايبحث فقط فـى المعلومات التى حصلها الطالـــب ، ولكن فى قدرته على إستخدامها ، ترتيبـها ، الربط بينها ، مقـارنتها ، وضعها فى الأماكن المـلائمة . . . إلى السؤال عـــن الآراء أو وجهات النـظر فى قضـية معيـنة يختـلف عليـها الباحثون . . . إلى المشكلة أو الحالة العملية - واقعية أو افتراضية - والتـى تتـضمـن مجـموعـة من المـواقف والأحـداث والأرقام والممارسات . . . ويطلب من الطالب أن « يحل » هذه المشكلة أو يعرض البدائل الملائمة للحل .

وكان الإمتحان المـفاجئ ، الذى لايعلن موعـده أو محتواه . فيمكــن أن يعقده الأستاذ فـى أى يوم من أيام محاضـراته ، وفى الأجزاء الـتى يراهـا من المنهـج . . . وكان الهـدف من مثـل هذا الإمتحان - وكان الأستاذ ينبه فى أول يوم دراسى أنه ستكون مثل هذه الإمتحانات فى مواعيد غيـر محدده سلفا - أن يذاكر الطالب دروسه ويراجع معلوماته ، يوما بيوم ، ولايؤجل درس اليوم إلى غد (كما يفعل كثير من الطلاب عندنا وعندهم) وأن يكون بذلك مسـتعدا لأداء الإمـتحان فى أى وقـت يطلـب منه ذلـك ، ولماذا يخاف منه إذا كان قد أعد له العدة وإنتظره وقبل تحدياته ؟

وكان هـناك الإمتحـان الذى يتضـمن الأسئـلة والحلول مـعا

ويسمونـه الإختبار المتعدد الإختـيار . فيعرض السؤال وتتـبعه عدة إجابات - فـى الغالب متـشابهة - ويخـتار الطالب إجـابة واحدة يعتقد أنها الصواب . وقد يظن البعض - كما ظن الفتى وكثير من زملائـه فى بـداية الأمـر - أن هذا الإمـتحـان سهـل فالإجـابات معروضة ومـا على الطالب إلا أن يختار . ولكن الواقع غير ذلك تمامًا . إذ تتـطلب عملـية الإختيار تـفكيرا مـركزا سريعا لإنـتقاء الإجابة الصـحيحة . فالامتحـان طويل ويتضمن عـددا هائلا من الأسئلة الـتى تتنـوع فــى صياغتهـا ، وطريقة عرضهـا ، وبدائل حلها . وتصبح المشكلة أصعب إذا إستخدم هذا الإختبار فى مواد الرياضة والإحصاء . هنالك يعصر الـطالب ذهنه ويجرى عمليات حسابـية سريعـة مركزه فى دمـاغه أو فى مسـودة صغيرة ، حـتى يتوصل إلى الإجابة السليمة .

ثـم كـان هناك نوعان من الإخـتبار ، شاهدهمـا الفتى لأول مرة ، وخاض التجربـة فيهما بنجاح . بعد أن أسـعداه وأشقياه . أعجـبته الفـكرة والأسلـوب المتبع فـيهمـا ، وأضنته المجـهودات المطلـوبة لتنفـيذهمـا . فأمـا النوع الأول فهــو امتحان الـكتاب المفتوح ، والثانى هو الإمتحان المنزلى .

فأنت فى النوع الأول تأخذ كتـبك ومذكراتك وجميع أوراقك

إلى قـاعة الإمـتحان وتـضع كـل ذلك أمـامك . وتسـتلـم ورقة الإمتحان ، وتقرأ الأسئلة ، ثم تبحث عن الإجابات الصحيحة فى هذه الكتب والأوراق .

كان إمتحانا شاقا ، وكان يـجرى فى صورتين . إما أن يحدد له وقت مـعين - ثلاث ساعـات مثلا أو خمـس - يسلم الـطالب إجاباته خلالها . وإما أن يكون مفتوح النهاية غير محدد الساعة - وإن كان فـى حدود يوم أو اثـنين . فـيمكـن للطـالب أن يـترك الإمتـحان فـى وقت معـين ، ويعود مـرة أخرى ، أو فى الـيوم التالى . خاض الفـتى عددا من إمتحانات الكتاب المفـتوح والنهاية المفتـوحة . ويذكر الفـتى أنه فى مرحـلة الدكتوراه ، جـلس فى أحـد هذه الإمتحـانات سبـع ساعات مـتواصلة ، حـتى التـصق بكرسيه ، وانحنى ظهره ، وكلـت عيناه ، وضاقت نفسه ، وجن عليـه الليل ، فـترك الإمتحـان ، سلم أوراقه ، اسـتقل سيـارته ومضى لايلوى على شيء .

وأما النـوع الثانى فـهو الإمتحان المـنزلى . . . يدفـع الأستاذ لطلابه أوراق الإمـتحان ، ويطلب مـنهم أن يأخذوها مـعهم إلى بيوتهم ، ويعودوا بالإجابات بعد يومين أو ثلاثة - غالبا أثناء عطلة الأسبوع ، حتى يتفرغ الطلاب تمامًا للإمتحان .

وإذا كان إختبار الكتاب المفتوح شاقا ، فإن الإمتحان المنزلى عنيف ، يحيرك ، يرهقك ، يحيط بك . كأنك تصطحب إلى البيت وحشا ضاريا ، ليعيش معك فى غرفة واحدة . مأزق كبير !! الوحش متحفز ، يتطاير الشرر من عينية ، يقذف إليك بأسئلة كأنها ألسنة اللهب . يتحداك ، ينقض عليك يمنعك من الراحة أو النوم . . . وأنت تحاوره ، تراوغه ، تريد أن تسبر أغواره ، تتغلب عليه ، تكون أذكى منه . . تفكر ، أى سلاح تهاجمه به ؟ هذه كل الكتب والمراجع أمامك . أين الإجابة ؟ هذه . . . تلك . . تشكيلة منهما . . . كيف تصوغها، كيف تربط الحقائق والأرقام ونتائج البحوث فى نسيج حى يدافع عنك ، يترافع لك فى محكمة العلم . . . الوحش يلين ، تنكسر شوكته ، تضعف قوته ، تخف حدة نظراته . . . يتحرك مرة أخرى ، يحاول أن يستجمع قوته - هذا جزء مستتر من السؤال ، هذه نقطة خافية ، هذا معنى غامض . . . . أنت تتنبه لكل ذلك ، توجه له لطمة بعد أخرى . . تقذفه - بعد توفيق الله - بعلمك ، تحيره بذكائك ، تصرعه بالمعرفة . . . الوحش يئن ، ناره تخبو ، قواه تخور . . . يسلم لك ، يعترف بقدراتك ، ينظر إليك بوهن . . . انتهت المباراة ، وكسبت الجولة ، وفزت فى هذا الصراع . . . لم يكن أمام الفتى بديل آخر غير النجاح .

☆ ☆ ☆

ولم تكن الإختبارات هى الوسيلة الوحيدة التى استخدمتها الجامعة لقياس قدرات الطلاب ودرجات تحصيلهم للمعرفة التى يتلقونها . وإنما كانت هناك أوراق وبحوث ومناقشات . . . وقد كتب الفتى فى مادة واحدة تسع أوراق بحثية ، كانت كل ورقة تتراوح بين عشر وخمس عشرة صفحة ، وتتناول موضوعا يحدده الأستاذ كل أسبوع أو أسبوعين . وقد تعلم الفتى من هذه الأوراق كثيراً . . حيث رجع إلى جفنة من المراجع ، وتحدث مع كثير من الأساتذة ، وناقش وتبادل المعلومات . . أنصت وتكلم واتفق وعارض واستنتج . . . لذلك كانت المكتبة أحد المعالم الرئيسية للجامعة ، وأحد الأجزاء الرئيسية للجدول اليومى الذى يضعه الفتى لنفسه . . . وكانت الجامعة تفتح أبواب مكتبتها إلى ساعة متأخرة من الليل خلال الشهر الأخير للفصل الدراسى ، عندما تقترب الإمتحانات ومواعيد تسليم البحوث ، حتى يتمكن طلاب العلم من الاطلاع على المراجع والوثائق التى يطلبونها وإستعارة الكتب والأبحاث التى يريدونها . ليت أولادنا يتعلمون أهمية المكتبة وفائدتها والدور الذى تلعبه فى حياتنا . . . وليت المدرسين فى المراحل التعليمية الأولى يغرسون فى نفوس الأطفال وعقولهم حب القراءة والرغبة فى إرتياد المكتبات للإطلاع على منافذ العلم والمعرفة . . .

كتب الفتى أوراقا كثيرة أخرى ، تناولت موضوعات عديدة ، يختارها بنفسه أو يدله عليها أستاذه . وكان يحس فى كل مرة يتم فيها بحثا معينا أنه قد كبر ، ازداد طولا ، اقترب من هدفه الكبير . وكان يسعد بالتعليق الذى يكتبه الأستاذ على بحوثه . فإلى جانب الدرجة المعطاة يسجل الأستاذ مديحه أو نقده . . . كتب له الأساتذة ملاحظات مختلفة : مجهود طيب ، استعراض واف للموضوع . . . وقد أسعده كثيراً ذلك التعليق الذى سجله أحد الأساتذة على بحث قدمه فى مادة علم النفس الصناعى « مجهود جيد ، لقد تعلمت كثيراً » .

الأستاذ يتعلم من تلميذه ! نعم ، هكذا المعرفة يتبادلها الناس ، وقد يتفوق التلميذ على أستاذه . كان الإمام الشافعى رحمه الله يشجع طلابه على المعرفة والقراءة والتأمل . . . وكان يجلس مع التلاميذ إذا تكلم أحدهم ويدفع المتكلم إلى المنصة . . . إن للإنجاز شعوراً خاصًا ، وقوة دافعة . فهو يفتح شهيتك لمزيد من العلم والتحصيل ، للإستمرار فى طريقك ، نحو إنجاز آخر ، وهدف أكبر .

ومضت الأيام بالفتى ، يتنقل بين حجرات الدرس ومكتبة الجامعة وقاعات الإمتحان وحلقات النقاش . يستمع لهذا

الأستاذ ، وينهل من ذلك . يقرأ ويسهر . . . هذه المادة صعبة ، وتلك سهلة . وهذا الأستاذ يحدد إمتحانا قادما ، وهذا يكلف طلابه بقراءة كتاب معين ثم مناقشته ، وذلك يطلب بحثا . . . . والفتى يحرص على أداء واجباته ومقابلة توقعات أساتذته . فيناقش ويقرأ ويتحقق . . . حتى إنتهى من دراسة المواد المطلوبة لشهادة الماجستير . . وإقترب الإمتحان الشامل أو المحيط والذى يسبق منح الشهادة .

منتدى سور الأزبكية WWW.BOOKS4ALL.NET https://twitter.com/SourAlAzbakya

فأما شموله فلأنه يتضمن أسئلة فى جميع ما تم تحصيله فى الفترة السابقة ، والتى ينتهى منها الطالب عادة فى خلال سنة ونصف أو سنتين - كل حسب إجتهاده ، وحسب توفر المواد المقررة والأساتذة التى يدرسونها . وهو كذلك محيط لأنه يستحوذ عليك ويأخذك من جميع أقطارك ، ويستولى على فكرك ومشاعرك فتنشغل به انشغالا تاما .

جلس الفتى خمس ساعات متواصلة فى هذا الإمتحان يقرأ ، ويستوعب ، ويكتب . كانت هناك قهوة وكعك على طاولة فى ركن الغرفة ، يتناول منها الطلاب ما يريدون . كان الإمتحان عبارة عن حالة عملية معقدة ، ذات جوانب متعددة ، ويراد حل ما بها من مشكلات وإصلاح ما فيها من عيوب . . . عصر الفتى

ذهنه وإسترجع معلوماته ... إنه التحدى وإثبات الذات ... هذه نقطة تحول فاصلة ... محطة رئيسية فى قطار النجاح ... وكتب الفتى ما شاء الله له أن يكتب ... وخرج وكأنه كان يشهد موقعة حربية هو الطرف الرئيسى فيها .

وبعد فترة قصيرة ... جاءه كتاب من عميد الكلية ، يهنؤه فيه بنجاحه وحصوله على شهادة الماجستير ، ويمدح فيه أداءه الماضى ، ويتمنى له التوفيق فى المستقبل . الحمد لله . سعد الفتى كثيراً بهذا الكتاب ، وكأنه تقلد وساما على صدره ... قرأه بعناية مرة تلو الأخرى ، وأسرع يمسك ورقة وقلما ، ووجد نفسه يكتب لأبيه : والدى العزيز ... أهديك اليوم شهادة الماجستير . نعم كان يرى أن أباه هو الشخص الوحيد الذى يستحق أن يهدى إليه هذا الإنجاز الكبير . أليس هو معلمه الأول ! كان يريد أن يشاركه أبوه فرحته . كم تمنى لو طار للحظة يشد فيها على يد أبيه ، ويقبلها ، ويعود مرة أخرى يواصل رحلة كفاحه .

ما أجمل النجاح ! ما أحلى الإنجاز ! ما أروع ذلك الإحساس الذى يجيش فى الصدر ، ويفيض على الآخرين ... احتفل الفتى مع أصدقائه ... كانت البهجة تعم الجميع . إن للمشاعر الإنسانية - فرحا أو حزنا - اتصالا لاسلكيا ينتقل بها بين قلوب الأصدقاء وصدورهم وألسنتهم .

يتذكر الفتـى أيضًا بكل الفرح والفخر ، تخـرجه فى الجامعة بمصـر ، وحصــوله علــى البـكالوريـوس . كـــان ذلك فـــى مـــدينة السويس قبل سفره لأمريكا بثلاث سنوات . كانت الكلية قـــد اختارتـه ليقضـى شهرا تدريـبيا فـى معمل تـكرير البـترول الحكومـى . . . وذلك بعد أن إنـتهى من الامـتحانات الأخـيرة ، للسنة الرابعة . . .

حمل الفتى متاعة القليل وتوجه إلى محطة القاهرة ، ليستقل الأوتوبيـس قاصدا مدينة الـسويس . . . كان رأس الفتـى يزدحم بالامتحانات التى أداها . . . يا ترى هل كانت إجاباته سليمة ؟ إن الأستاذ فلان متشدد ، وفلان بخيل فى درجاته ، وفلان لايرضى بشـىء . . . وصـل الـفتـى إلى مـدينة الـسويـس ، العريـقة ، الشامـخة . . . هذه أول مرة يزورها . . . حـاول أن يتلمس فـيها آثـار حرب ١٩٥٦ - بعد سـنوات مـن إنتهـائها - ويـشم رائـحة البطـولات التى حققـها المصريون . . . لـقد امتلأ رأسه بـالأغانى والأناشيد التى قيلت أيام الحرب . . . ولكنه الآن سيعيش فى هذه البلدة الصامدة الصابرة . . . فلتكن إقامته فيها طيبة إن شاء الله .

ذهب الفتى إلـى مقره الجديد . إستراحة المعمـل ، سيمكث هنا شهرا كاملا ، يتدرب ، يتلقى ، يدخل الحياة العملية . إلتقى

مع فتية آخرين - من كليات التجارة والهندسة والعلوم . حدث تآلف سريع بين هؤلاء الشباب على اختلاف تخصصاتهم وثقافاتهم الفرعية ومواطن ميلادهم ، وأكثر من هذا كله دوافعهم وطموحاتهم . ضمتهم الغربة المؤقتة . . ووحد بينهم الهدف الذى اجتمعوا من أجله . إنهم جميعا فى آخر درجات السلم التعليمى . . . سيتخرجون بعد أسابيع ، وربما أيام . . . هذا مهندس ، وهذا عالم طبيعى ، وكيميائى ، وجيولوجى ، ومحاسب .

كانوا يذهبون فى الصباح إلى المعمل ، يتوجهون للمكاتب أو المختبرات أو الحقول - كل حسب تخصصه ، ينصتون للموظفين الكبار ، الذين يتولون تدريبهم ، وكان يقودهم جميعا مدير العلاقات العامة . كان رحمه الله رجلا باش الوجه مبتسما ، حلو المعشر رقيق الحديث . كان حقا يجيد فن العلاقات . كان يعامل الفتية على أنهم رجال . . أصدقاء . . ضيوف أعزاء .

كل وسائل الراحة كانت متاحة فى الإستراحة . كان العاملون بالمعمل يحتفلون بهؤلاء الشباب ويسعدون برؤيتهم - كأنهم كانوا يرون أنفسهم فيهم ، شبابهم فى وجوههم ، أحلامهم فى نظراتهم ، طموحاتهم فى سعيهم إليهم وتعلمهم منهم . ولم

يعـكر صـفو هذه الـسعادة سـوى صخـب بعض هـؤلاء الشـباب وضجيجهم أثناء الليل .

كلفوهـم بكتابة تقرير عـما شاهدوه وتعلموه خـلال الشهر ، أخذ الفتى الأمر بجدية . وعكـف على تقريره يدرسه . . . خطط له جيدًا . . قسمه إلى أجزاء . . كتب عما رأى وسمع وتعلم . . حاول أن يربـط بين ما تعـلمه فى الجامـعة بما رآه فى الـعمل . . وضع أفكاره علـى الورق . . كانت هذه أول تجربة عمـلية له فى البحـث العلمى . . . ليـته احتفظ بـصورة من هذا التقـرير الذى مدحه من قرأه وأثنى على المجهود الذى بذل فيه .

تقاضى الفـتى أجرا عن الشهر الذى أمضاه فـى رحاب معمل التكرير . . . خمســـة عشر جنيها . فـرح بها الـفتى كثيرا . كان لها مـــذاق حلـــو ، خــاص ، إنه أول أجـر يأخذه لقاء عـمله وفكره . . . احتـفظ بأول جنيه منـه - ذكرى للأيام الجميـلة التى قضاهـا بالسويـس . . . « موظفا » مـبتدئا مـتدربا فى الـصباح ، وسائـحا متجـولا بعد الغـروب . . فرح زملاء الـفتى أيضًا بـهذا الراتب المجزى ، لقاء الأيام التى قضوها فى هذا البلد الكريم . . والتى شـاهدوا فيها تجربـة للعمل الجـاد فيما بعد . وكـانت أيضًا فرصة كبيرة لهم للإنطلاق والترفـيه بعيدًا عن أهاليهم . . . فكانوا

يقضون معظم الليل يسمرون . . وكانت ضحكاتهم ونكاتهم تمزق سكون الليل . . . هذا السكون الذى كان سمة واضحة من سمات الضاحية التى أقاموا فيها . . . كان العاملون بالمعمل يريدون أن يأخذوا قسطهم من الراحة ، ينعموا بالهدوء . بعد تعب النهار وإرهاقه . . ولاشك أن هؤلاء الفتية قد أنقصوا من استمتاعهم بجمال الليل الوسنان .

ويمكن للفتى أن ينسى أشياء كثيرة . . ولكنه لن ينسى ذلك اليوم من أيام التدريب ، والتى وصلته فيه برقية ، أمسكها الفتى وجلا ، وفضها بقلب ملهوف وعينين حائرتين . ويقرأ الفتى : « مبروك ، نجحت فى البكالوريوس ، ترتيبك الأول » ، هذا ابن عمه ، أستاذه الذى تولى أمره - نيابة عن أبيه - خلال دراسته بالجامعة ، يرسل له تهنئته بالنجاح . أعاد الفتى قراءة البرقية مرات . . ضمها فى يده . . كأنه يحتضن كنزا . . شيئًا غاليا . . . وثيقة الفرح . سيفرح أبوه بشدة عندما يعلم الخبر . . لاشك أن الإنتظار قد برح به . ما أجمل أن ينقل إليه نبأ نجاحه . إنه يريد أن يقرأ البرقية الآن بصوت عال ، من السويس . . حتى تبلغ مسامع أبيه فى الصعيد . . . وهل تحتاج قلوب الأحباب ، الآباء والأبناء ، إلى وسائل إنتقال . . . إن نبضة هنا أو زفره هناك لابد أنها تبلغ الطرف الآخر فى الحال . . كان الفتى يريد أن يهدى

لأبيه نجاحه . . كما أعطاه أبوه كل حياته . . . قلبه وحبه وعلمه ونصيحته وتوجيهاته .

☆ ☆ ☆

إن النجاح غاية ووسيلة . فهو نهاية مرحلة من مراحل السعى وبداية أخرى . نهاية حلقة من حلقات الكفاح وبداية أخرى . إن الطريق طويلة ، والمراحل متعددة . . وهى ليست سهلة أو ممهدة . . إن بها أشواكا وحواجز وعقبات . بعضها يسير والآخر خطير . . ولابد للإنسان أن يتخطاها ويتغلب عليها . ويتطلب ذلك إيمانا بالله صادقا ، وثقة بالنفس كبيرة وأخذا بالأسباب ، واستعدادا بالعلم والعمل ، عرقا غزيرا وجهدا كبيرا . قال إديسون : إن النجاح ٩٩ ٪ عرق ، ١ ٪ ذكاء .

فإذا أصاب الإنسان الهدف فإنه يرضى ، ويسعد من حوله ، يفرح به الناس ، يعجبون به ، يحترمونه ، يضعونه فى موقعه الملائم من الإحترام والتبجيل . ثم إن تحقيق الهدف يساعد على بلوغ أهداف أخرى . إن للنجاح لفرحة تغمر النفوس وتعمر القلوب بالتفاؤل والأمل .

أما الإخفاق . . . الهزيمة . . . فلها مرارة فى النفوس وغصة

فى القلوب ، حتى الهواء الذى يشمـه الناس يبدو ثقيلا ، محملا بالحزن وخيبة الأمل .

ولكـن . . . هل معنى هـذا أن الإنسان لايجب أن يـفشل أبدا . .؟ لا ! لابد أن لكل عالم هفوة ، ولكل جواد كبوة ، كما يقول المثـل . فالحياة ليسـت سعادة مستمـرة كما أنها ليـست شقاء مقيما . فربما نجح إنسان الـيوم ، وأخفق غداً ، ثم عاد ونجح مرة أخرى . « ومن يـتصيد يحسـب الغنم والخسرا » . . . ولـكن ما نوع هذا الـفشل والنجـاح ؟ درجته ، خطورتـه ، آثاره ، المجال الذى يحدث فيه - البيت ، العمل ، الحب ، الدرس . . . !!

ثم إن الناس يختلفون فى تعاملهم مع الفشل . فأما الشخص الناضـج ، فينظر إلـى الإخفاق بعين موضـوعية ويرى فيـه فرصة للتحسين ، للـتعلم . يحسه هما ثقيلا يجـثم على صدره ، ولكن فى نفس الوقت يجـده هدنه يتصالح فيها مع نفـسه . يتذوقه سما قاسيا ، ولكـن كما قال شوقى « ومن السمـوم الناقعات دواء » . يراه ناراً تلـسعه ، ولكن فى نفـس الوقت يضئ نورهـا الطريق ، يدله كـيف يتفـادى الفشل فـى المرة القادمـة ، ويأخذ حظـه من النجاح الذى يبغيه . الشخص هنا هو الذى يطوع الفشل ويروضه ويحوله لصالحه .

وأما فريق آخر فتحتويهم الهزيمة .... تسيطر عليهم ... فيستولى على نفوسهم شعور داخلى عميق بالضياع والعجز وعدم القدرة على تخطى الصعاب مرة أخرى .

يذكر الفتى بكل الأسى أحد أقاربه ، أبناء القرية .. كان صبيا فى المراحل الأولى للتعليم .. لم يكن يميل للمدرسة كثيرا .. كان يفضل عليها الحقل ... لم يكن يميل للقراءة . كان يفضل عليها الزراعة ... كان يستهويه الشغل البدنى أكثر من الإنشغال الفكرى . رسب الصبى فى إمتحان آخر العام .. غضب الأهل ... ووصفوه بالإهمال .. أطلق عليه البعض لفظ الراسب ... كان البعض ينادونه « ياساقط » . صدم الولد فى نفسه وفى أسرته .. إشتد به الكرب .. طفح الكيل بالولد ... ماذا فعل ؟ سكب على جسده صفيحة غاز ، وأشعل فى نفسه النار حتى مات ... حاولوا إسعافه ولكن قدر الله المحتوم نفذ ... حزن الناس .. ندم الأهل .. ولات ساعة مندم ... لاحول ولاقوة إلا بالله . كان صبيا متفتحا للحياة ... حباه الله بسطة فى الجسم ... فكان يطاول الرجال وهو بعد فى المدرسة الإبتدائية .. انظر كيف يجنى الناس على أولادهم . أين التوجيه والإرشاد ؟ الكلمة الطيبة ، الحكمة والموعظة الحسنة !

سمع الفتى إحدى الأغنيات الأمريكية أثناء بعثته . . . كان يغنيها المطرب المشهور سيناترا ، تقول : إذا تعثرت مرة ، وانبطحت أرضا على وجهى ، فإنى أقوم مرة أخرى ، نعم . . . يواصل الإنسان السعى . . . يقوم . . يضمد جراحه ، يلم شعثه ، يستجمع أفكاره ، يستعيد نشاطه ، يضع خطة أفضل ، أكفأ ، يمضى فى طريقه نحو هدفه مرة أخرى .

كتب الفتى مرة وهو فى المرحلة الأخيرة فى الجامعة بمصر ، وقبل أن يسمع هذه الأغنية بسنوات . . . وكانت هذه عادته يفزع إلى الورق يسجل فيه أحاسيسه وأفكاره وخواطره . كتب يقول : أحرص على انتصاراتى التى حققتها بفضل الله بعد جهد مضن وكفاح دام سنين ، كنت خلالها أزيل من طريقى ما يصادفنى من عقبات . كنت أستجمع إرادتى وعقلى وقواى وأمزجها بعرقى الحار . . وأسير ، ولا أبالى بما يعترضنى من شوك . . ولاأقف إذا جرحنى هذا الشوك لأتألم أو أنظر إلى الدماء وهى تسيل ساخنة . وإنما كنت أضع يدى على جرحى وأمضى فى كبرياء وعزم وتصميم .

٥

الدكتوراه ...

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لانضيع أجر من أحسن عملا ﴾

سورة الكهف ٣٠

☆ ☆ ☆

كلما كانت الآمال كبارا

تعبت فى مرادها الأجسام

☆ ☆ ☆

وما نيل المطالب بالتمنى

ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

خطوة كبيرة تلك التى خطاها الفتى بحصوله على إجازة الماجستير . وحاجز كبير ذلك الذى قفزه ، ليس فقط بحصوله على الشهادة ، ولكن أيضًا بتقدير الآخرين وإعجابهم به وتمنياتهم له بمزيد من النجاح .

قويت ثقة الفتى فى نفسه . وبدأ يعد العدة ليخطو خطوه أوسع ، ويتعدى حاجزا أكبر . . . إنها الدكتوراه . . . الفلسفة . . . الإنتقال إلى مرحلة راقية للفكر والبحث والتنظير .

دار الصيف دورته . وأخذ الفتى قسطه من الراحة والإستجمام . وإستعد لكى ينطلق مرة أخرى بنفس الهمة والنشاط . . . واضعا أمامه أهدافا سامية وآمالا كبارا .

وإستمر الفتى يتردد على قاعات الدرس ، ويختلف إلى الأساتذة الذين أحب كثيرا منهم وأعجب بكثير منهم - كما تقدم - وإن كانت قلة منهم لم تحظ بإعجابه أو حبه . ولكنه كان يقدر للجميع مجهوداتهم .

لقد عوده أبوه أن يحترم أساتذته ومربييه . وقد كان الفتى يرى حب الناس لأبيه - أستاذهم الذى علمهم وأدبهم ، كانوا يكلمونه بود ، وينظرون إليه بإعجاب ، ويدعون له بسخاء .

وكان بعضهم يحاول تقبيـل يده . . . وكان الرجل يتلقى كل ذلك بامتنان بالغ ، فتدمع عيناه ويبادلهم ودا بود ، وترحابا بترحاب .

كما كان الفـتى يرى حب أبيه لأستاذه الأول . قـابله مرة فى صعيد مصر ، عندما كان صبيا صغيرا . كان يصلى فى المسجد مع أبيه . . . رأى شـيخا طاعنا فـى السن يتوكـأ على عصا غلـيظة . ورأى أباه يتقدم من الشيخ ويسلم عليه بأدب ويكلمه بود وإكبار، ويدعــو له بـحب وتـقدير . قـال الأب للصـبى : هـذا فلان ، أستـاذى . . . . أول من تلـقيت عنـه العلـم والأدب . . . أطرق الشيخ ممتنا ، وأجال نظره بين الأب والإبن ، ودعا لكل منهما .

كذلك كـان الأب يحكى لابنه عـن أساتذته . . . منهـم مثلا علـى الجـارم ، الشاعر الـكبيـر الذى تتـلمـذ عـليه الأب فـى الجامعـة . . . كان - كما وصفه الأب - مثالا للأستاذ الجامعى ، قوى الشـخصية ، غـزير المعلـومات ، حلو الحـديث . . . وضع الإبن صوره كريمة فـى خياله لهذا الأستاذ . . . حتى تـعرف عليه بعد ذلك من خلال أشعاره . . . فى كتب المدرسة . . . . أحبها ، حفظها ، رددها . . .

شىء رائع أن تـتواصل الأجيال . . . هذا يـأخذ عن ذاك . . وذلك يعطى للآخرين . انها الحياة المستمرة . . . والبحث الدائب

عن المعرفة والتربية السليمة . وهكذا يوصينا الرسول الكريم ﷺ : « ليس منا من لم يوقر كبيرنا » . وهكذا يعلمنا أبو الدرداء عندما كان يحرث الأرض . فقيل له أتزرع وأنت شيخ كبير ؟ فقال : لا ضير ، لقد زرع آباؤنا فحصدنا نحن ، وكذلك نغرس فيحصد أولادنا . ومن أحسن غرسا ممن يعلم الناس . . . ومن أفضل عطاء من الذى ينمى العقول ويفتح الأبصار والمسامع والقلوب للمعرفة . . . لقد قدم شوقى العلم على المال فقال بالعلم والمال يبنى الناس ملكهم . . لم يبن ملك على جهل وإقلال .

لقد كان للأساتذة الأوائل فى حياة الفتى أثر كبير . فإلى جانب أبيه ، أستاذه الأول ، تتلمذ على أساتذة أفاضل ، فى المراحل التعليمية المختلفة ، حتى قبل المدرسة الإبتدائية أرسله أبوه إلى مدرسة كان اسمها مدرسة النجاح . . . أليس هذا فألا حسنا ؟ كان أبوه يحب الأسماء الحسنة البهيجة المتفائلة . . . وكان يريد أن يغرس فى نفس ولده حب العلم مبكرا . .

يذكر الفتى مدرسى اللغة العربية على وجه الخصوص . . والذين تركوا فى نفسه أثرا عميقا . لقد أحب هذه اللغة الجميلة لحب أبيه لها . كان أبوه يتكلمها بطلاقة . . يجيد قواعدها ، يتقن بناءها ، يعرف أسرارها . تجرى على لسانه طيعة سهلة بليغة . . .

كان الأب يلقنها لإبنه ، يغرس فيه حبها .. يقرأ عليه الشعر ، يطلب منه الإعراب .. يصحح له أخطاءه .. يغضب إذا وجد خطأ فى النحو ... وكان المدرسون على نفس المنوال ... كثير منهم كان يعطى للتلاميذ عطاء سخيا ...

يذكر الفتى بامتنان وإعجاب شديدين ذلك المدرس الذى كان يشرح اللغة العربية شرحا وافيا .. ثم يحث تلاميذه على حفظ مقاطع القراءة والنصوص .. ويطلب منهم الإعراب .. يسألهم ، يستثيرهم ، ينشر جوا من المنافسة العلمية بينهم ... كان التلاميذ - ومنهم الفتى حين كان صبيا صغيرا - يتسابقون للإجابة . يرفعون أصابعهم ، ينتظرون أدوارهم ، يصغون لإجابات الآخرين ، يحاولون أن يقولوا أحسن منها ... ملحمة رائعة من العمل الجماعى كان هذا المدرس رائدها .. أليست هذه هى الطريقة الحديثة للتعليم .. كانت عندنا زمان فى الصعيد ..! كان الفصل أشبه بفرقة موسيقية منسجمة تعزف لحنا جميلا ، كان هذا المدرس «مايسترو» بارعا يلهب حماس تلاميذه ويحرك مكامنهم ويطلق طاقاتهم ، بحركة خفيفة من يده ، أو هزة عنيفة من رأسه ، وكانت له كلمة لطيفة يقولها بعد أن يصل التلاميذ إلى الإجابة الصحيحة : « بس ، ولا كلمة » . فيغرق التلاميذ

فى الضحك، ويبتسم الأستاذ سعيدا. . وينتقل إلى نقطة أخرى ، والتلاميذ يتبعونه سعداء ، راضين ، محبين له وللغته الجميلة .

ولن ينسى الفتى ذلك الشيخ الوقور الذى تتلمذ عليه فى المراحل الإبتدائية الأولى . كان متدفق العطاء ، ينسى نفسه إذا كان يشرح الدرس . . . يسأل . . يحاور . يتأكد أن التلميذ فهم ووعى . .

يخيل للفتى أن هؤلاء المدرسين كانوا يحبون المواد التى يدرسونها - وأكثر من ذلك وأهم منه . . كانوا يرغبون بإخلاص أن ينقلوها لطلابهم ، ويفعلون ذلك بأمانة ، ويبذلون فيه جهدا كبيرا .

كذلك يذكر الفتى بكل الود والإعجاب إمام المسجد الذى كان يصلى فيه الجمعة ، كان أستاذا جليلا ، وخطيبا مفوها ، وداعية فذا يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة . كانت خطبة الجمعة التى يلقيها وثيقة أسبوعية ، بلاغا للناس ، جرعة قوية تدعوهم لما يفيدهم فى دينهم ودنياهم . لم يكن يقرأ من ورق أمامه . . وإنما كان الكلام يجرى على لسانه بفتوح من الله . . كأنه عقد من الذهب منتظم الحلقات . . كأنه الماء الجارى . . . حديث بسيط ، سهل ، رائع المعانى ، يفهمه العامة والخاصة . .

فإذا قضيت الصلاة كان هذا الإمام صديقا للناس ، مدرسا لأبنائهم الطلاب لايبخل عليهم بعلم ، ولايضن عليهم بوقت ، ولايدخر جهدا لتعليمهم وتبصيرهم بالأمور التى تنفعهم فى مستقبلهم .

حتى مدرس اللغة الإنجليزية الذى استدعاه له أبوه ليلقنه دروسا خاصة فى المرحلة الإعدادية . . . كان هذا المدرس يجئ إلى الصبى ، مجهدا ، متعبا من كثرة ما أعطى من دروس . . . وكان يرتمى على الكرسى ، ويفتح الكتاب ، ويقرأ عنوان الدرس . . . وكانت للصبى سبورة وضعها له أبوه فى صالة كبيرة بالمنزل . . . فيقوم الصبى إلى السبورة يشرح عليها الدرس . . . ولايلبث أن يفعل ذلك حتى ينام المدرس . تنسدل رموشه ببطء ، وتغمض عيناه تدريجا وتميل رأسه قليلاً ، ثم تنكفئ على صدره . . وأحيانا كان يغط فى نومه حتى ليحدث شخيرا عاليا . . . لايقطعه إلا أن يوقظه الصبى ليسأله سؤالا . . أو حين تجئ الخادم بالشاى ، أو عندما ينتهى الصبى من شرح الدرس . . فيخبر المدرس بذلك . . . فيصحو هذا ويلملم أوراقه ويمضى . . ربما لدرس آخر . . !!

وقد نختلف مع هذا المدرس ، وقد يلومه البعض ، وقد ينكر

علـيه البـعض الآخر سـلوكه . . . فـالإلتزام واجـب ، واليقـظة ضرورة ، والإنتباه التام مهم للمدرس كما هو مهم للطالب . . .

وربما تضايق الصبى من نوم مدرسه ، أو ربما أسعده ذلك لأنه لم يتـنبه لأخطـائه ، ولن يكلـفه بواجبات أو يـزعجه بأسـئلة أو يضيق عليه الخناق باختبارات . . .

ولكــن مع هـذا كله ، كـان الصبـى - وخاصة بـعدما كـبر ونضج - لايحط من قدر هذا الأستاذ ، بل إنه كان يقدره ويشكر له أنه جاء راغبا طائعا ليعلمه . . وربما قال كلمة أو اثنتين ، درسا أو اثنين . . . استفاد بهما الصبى ، ونـفعاه بعد ذلك فى إمتحاناته أو حياته أو علاقاته .

☆ ☆ ☆

فليقبل الفتى إذن على العلم ينهل منه ما استطاع . . ولينكب على كتبه وأوراقه يدرسها ، يلتهمها ، وليثبت وجوده ، وليمض للمنافسة مع أقرانه . . . ليتقدم ولايخش شيئًا . . .

مجمع كبير ذلك الذى وجده فـى جامعته الأمريكية . طلاب من كافـة أجناس الأرض . . . هذا عربـى وذلك أمريكـى وثالث هنـدى . . . هـذه فرنـسية وتلـك كـورية وأخـرى مـن جنـوب

أفريقيا . . . جمعهم على إختلاف جنسياتهم ومشاربهم ونحلهم وخلفياتهم ، هدف واحد . . مزيد من العلم والمعرفة والرقى .

خاض الفتى إمتحانات كثيرة - ذكر بعضها مبكرا - واعتاد أن ينظر إلى الإمتحان على أنه فرصة وليس تهديدا . حلبة منافسة وليس تأديبا . ميدان سباق وليس مصيدة للأخطاء .

ها هو يعد للإمتحان عدته . . يقرأ ويبحث ويستمع . . يكتب ، يتأمل . . . وهذه بحوث فرعية يكتبها . . أوراق كثيرة كتبها . أحس أنه مؤلف ، يصنع الأفكار . . . مهندس أداته العلم . . يطوعه بقلمه وعقله . . يصوغ وجهات نظره . . ينقد . . يبتكر . أحس بالفخر ببعض الأوراق التى كتبها : « الفقر فى أمريكا . . نقطة التعادل . . المسئولية الإجتماعية لمنظمات الأعمال . . المنتج ٩٩ من لعب الأطفال . . التغيير والتطوير . . » .

لم يكن الأمر سهلا بالمرة . . وإنما كان هناك عرق وجهد وكفاح . . إنه سباق مع الوقت الذى يجرى . . . الذهب الغالى . . . السيف الذى إن لم تقطعه قطعك . يذكر الفتى أنه عندما كان فى السنة الأخيرة بالجامعة فى مصر ، كان يضع أمام عينيه هدف التخرج . . وكان يحس أن الوقت يمضى به سريعا .

فكتب على جميع كتبه عبارة مـــا زالت ترن فـــى أذنيه فـى أمريكا « أنا أجرى ، والزمن يجرى ، وكلانا فى سباق » .

كان يشــعر مرات كثيرة بـالإرهاق . . ليس الجسدى فـقط من كثرة الذهـاب والإياب للجامعـة ، والتردد على قاعـات البحث ، والتنقل بينها وبين المكتبات . . . ولكن أيضًا الإرهاق الذهنى . . . وكان يأخذ قسطة من الراحة . . يسافر فى عطلة الأسبوع إلى بلدة مجاورة ، أو قرية صغـيرة ، أو شاطئ ممتد . . يستمتـع بالشمس والهواء والماء . . يجدد نشاطه ، يغـير روتين حياته . . يعد العدة لفكاح جديد .

☆ ☆ ☆

إنخرط الفتى فى مجتمعــه الأمريكى . . إكتسب عادات كثيرة جــديدة . . . أصبـــح الصعيـــدى أمريـكيا . . . كون صــداقات عديدة . . . تـعرف على أسر كـثيرة . وكانت إحـدى هذه الأسر تعتز به كـثيرا . دعته مرة فى عيـد الشكر ليتناول طـعام العشاء ، الذى يـتكون عادة مـن ديك رومى كبـير ، يلـتف حوله أعـضاء الأسرة يشكرون الله الـعلى القدير لما رزقهـم من طعام . . . وإذا كنا نسمى هــذا الديك روميا ، فإن الأمريكيين يعرفـونه بالتركى ! وأما الأتراك فـيسمونه هـنديا . . . كما يطـلق عليه الـشوام اسم

الحبشى . جنسيات كثيرة اكتسبها هذا الديك ، ولم لا فهو ديك فخم ضخم فاخر ، يعجب به الناس فى كل مكان . أما الحلوى فهى غالبا قرع عسلى . . يجتمع الناس فى هذا العيد ، يتزاورون ، ويأكلون ويسمرون ، ويحتفلون ، ويتبادلون التهانى وحلو الأمانى .

كانت أسرة صغيرة تتكون من محام كبير وزوجه . كان الرجل فى الستين من عمره . يحب مصر كثيرا . . . زارها منذ زمان . . فى العقد الثالث من هذا القرن . يذكرها بكل الود ، يتحدث عنها بشغف ، يصف آثارها الخالدة بإعجاب ، يحلم بشوق شديد أن يعود إليها مرة أخرى . وكانت زوجه سيدة رقيقة ، عميقة التفكير ، إجتماعية ودودة ، تحب من حولها ، وتحب الحياة .

كان أبناؤهما كبارا ، تفرقت بهم السبل . يعيشون فى ولايات أخرى . أصبح الفتى وكأنه ابنهما . يحيطانه بالرعاية والحب . يسألان عنه إذا غاب . يهنئانه إذا نجح . يشجعانه ، يتتبعان أخباره . . . إستمرت صداقتهما للفتى حتى بعد أن انتهى من دراسته وغادر البلد . كان هذان الزوجان نموذجا للحب والتعاطف ، لم يكن الفتى يحس معهما أنه غريب . . . كان كأحد أفراد العائلة .

زاد إعجاب الفتى بالرجل عندما تقاعد هذا . . . فلم يمكث فى بيته يجتر ذكرياته ، كما يفعل كثيرون فى أنحاء الأرض . وإنما قرر أن يدخل الجامعة من جديد ! فوجئ الفتى بالرجل فى بداية عام دراسى جديد . . . يوم التسجيل ، ذلك اليوم الذى يذهب فيه الطلاب لتسجيل أسمائهم وإستلام بطاقاتهم الدراسية وهوياتهم الجامعية . سجل المحامى الكبير اسمه فى ماجستير التاريخ . . . أخذ صحيفة التسجيل . . وبدأ يكتب بياناته . . وعندما وصل إلى بند العمر قال للفتى مداعبا : هل أذكر لهم عمرى الحقيقى ؟ وكتب أربعة وستين عاما !

وهل هناك سن معينة يتوقف فيها الإنسان عن طلب العلم . قال النبى ﷺ : « أطلبوا العلم من المهد إلى اللحد » . فلينهل هذا الرجل من العلم ما إستطاع . بل إنه ربما يفيد مما يتعلم أكثر مما يحصل طالب فى شرخ الشباب . لأنه جاء إلى الدرس طائعا مختارا ، وليس للحصول على شهادة أو ليبحث عن عمل بعد ذلك . فهو يعيش عيشة رخية ، ويمتلك منزلا ، وإنما أراد فقط أن يستغل وقته فى شىء مفيد .

وهذه إحدى الطالبات . . تدرس للماجستير أيضًا . . إنها زوجة ، وأم لأربعة أطفال ، وتعمل لتكسب قوتها وتساعد زوجها

. ورغم كل هذه المسئوليات فإنها تدرس وتواصل تعليمها . كانت تذهل الفتى بنشاطها وحيويتها . تجرى إلى المكتبة . . . وتسعى إلى قاعات الدرس . . . تكتب بحثا . . تؤدى إمتحانا . . تسرع للحاق بالعمل . . كانت شعلة نشاط . . .

أعادت هذه المرأة إلى ذهن الفتى ، الفلاحات اللاتى يعملن فى حقول مصر . كان يراهن فى حقول أخواله . . زوجات وأمهات وعاملات . . يعملن بجد وإخلاص يضارعان جد الرجال وإخلاصهم . بل ربما فقنهم صبرا وجلدا ، فى شئون كثيرة . . كتربية الأطفال ، وأشغال الإبرة ، وصنع كثير من المنتجات . كان الفتى - فى مراحل عمره المبكرة - ينظر بتأمل كبير للنساء اللائى يشتغلن بالإبرة . كان يتابع ببصره تلك الخيوط المتفرقة تتآلف بين أصابعهن لتصبح نسيجا بديعا . هذا شال وتلك « بلوزه » . كيف تستطيع هذه الأصابع الماهرة أن تجمع هذه الخيوط المتناثرة والألوان المبعثرة ، وترسم منها لوحة منسجمة رائعة !

إنه العمل . . شغل وقت الفراغ . . ألم يوصينا النبى ﷺ بالعمل . . وبأن من بات كالا من عمل يده ، بات مغفورا له . وأن اليد العاملة الخشنة المعروقة ، يد يحبها الله ورسوله .

أجل . . إنه العمل . . الجهاد . . . ألم ير الفتى أباه يعمل

طول عمره . . حتى بعد أن تقاعد . . لم يمكث فى بيته ويستسلم للأوهام . هذا الجامعى القديم ، المعلـم القدير ، المدير الكبير . . قام وسعى واشتغل . . كان الصـبى يراه وهو يخرج مع أول خيط من النور فى الصباح ، كالجمل الصـابر ، كالجبل الصامد ، يلبى نداء ربه للعمل ، ويطيعه جل وعلا فى أولاده ، يوفر إحتياجاتهم ويسهر على راحتهم ، لقد كرس لهم كل حياته . . .

فليعـمل الفتى إذن ، ليجـاهد كما علمـه أبوه . . وكما رأى رجالا جادين يعملون ، ونساء مخـلصات يعملن ، فى مصر وفى أمريكا . . . وليمض فى طريقة قدما وعناية الله تحرسه .

☆ ☆ ☆

وثق الفتى مـن نفسه . . إنتظمت حيـاته الدراسية . . درس عدداً كبـيراً من المواد المطلـوبة لبرنامج الـدكتوراه ، وانتهى مـنها جميعا . وبدأ يعـد العدة لينجز إنجازين تاليين ، أولـهما الإمتحان الشامل ، والثانى مشروع رسالة الدكتوراه .

فأما الأول فقد سهر ليالى كثيـرة يجهز له ، قرأ كتبا كثيرة . . تأمل وفكر وبحث واستوعب وتساءل !! ولاشك أن هذه القراءات قد أسهمت كثيرا فى تكثيف مـعلوماته ، ولكنها أيضًا - وهذا هو الأهم - أضفت على شخصيته طابـعا جديدا . إنه يتعلم ويعلم ،

ويتبادل الأفكار مع أقرانه ، ينظر إلى ما يقرأ بعين فاحصة وعقلية ناقدة . ألا يسمونها دكتوراه الفلسفة ؟ لن تكون فيلسوفا بسهولة ! يجب أن تمعن النظر فيما تقرأ وتسمع ... هل هذه النظرية صحيحة ؟ لماذا ؟ هل أدت مهمتها ، تقادمت !! هل يجب أن تستجد نظرية أخرى غيرها ؟ هل لتغير الزمان والمكان أثر على تطبيق النظرية والنتائج المترتبة عليها ؟

وهكذا يستمر العلم وتتواصل الأجيال - هذا يخرج بنظرية ، وذلك يثبتها ،وثالث يدحضها ، ورابع ينقدها ، وخامس يأتى بخير منها ... هذه نظرية تتقادم ، وتلك نظرية تحل محلها . هذه تصلح فى مجالات ومناطق وثقافات معينة ، وتلك تطبق فى مجالات أخرى . هذه نظرية واسعة الإنتشار ، وتلك ضيقة الحدود . وهذه قابلة للتطبيق فى الواقع العملى ، وتلك مثالية لابد من توافر شروط معينة لتطبيقها . هذه يقبلها الناقدون ، وتلك يرفضونها ، وثالثة يعدلونها ... إن النظريات تفتح أبواب الفكر ، تمهد لبحوث تالية ... وهذه البحوث تفرز بدورها نظريات أخرى تتمخض عنها أبحاث جديدة ، وتفتح مجالات أخرى للبحث والتفكير .

عصر الفتى ذهنه ، وتفاعل مع أفكار الكتاب والباحثين ،

وحصل معلومات كثيرة ، واستنتج أفكارا غزيرة . ودخل الإمتحان الشامل . كان جزء منه تحريرا والآخر مشفاهة فأما الأول فأنت تفكر فيه على الورق ، تكتب ما يسعفك به عقلك . . . كانت ترن فى أذنى الفتى دائما كلمات أبيه ، عندما كان يوجهه للإمتحانات وهو صبى صغير . . . إقرأ الأسئلة جيداً . . . إفهمها . ألا نقول الآن إن المشكلة المعرفة جيدا تعتبر نصف محلولة ؟ إن اليابانيين اليوم - من ضمن أنماط سلوكهم الناجحة - يفهمون الموقف جيدا ، يدرسون المشكلة على مهل . . يجمعون بيانات ، ولايتخذون قرارهم إلا بعد تفكير وتحليل عميقين ، ولكن ما أن يصلوا إلى قرار فى الأمر الذى ينظرونه ، حتى ينطلقوا بسرعة ليخققوا أهدافهم .

كان والد الفتى سابقًا لأوانه ، عميق التفكير بعيد النظر . . . إقرأ الأسئلة جيداً . . فكر فيها وتمهل . . ثم إكتب إجابتك بنظام وتنسيق . . ثم إقرأ ما كتبت وراجعه لتتأكد من صحته . . لاتتعجل ، ولكن فى نفس الوقت إحسب الزمن المتاح للإمتحان ، فلا تكن إجابة سؤال على حساب إجابة سؤال آخر . . . ابدأ بالسؤال السهل الذى تعرف إجابته جيداً . . انته منه ، ثم خذ السؤال الذى يليه فى الصعوبة . . . واجعل أصعب

الأسئلة آخرها . . بعد أن تكون قد أجبت عن الأسئلة التى تجيد إجاباتها وحصلت على نقاط تضمن نجاحك . . ثم خذ السؤال الصعب . وفكر فيه مليا وابذل جهدك فيه بإخلاص . . . لاتترك سؤالا بدون إجابة . . حاول . . فكر . . إسترجع معلوماتك . . أليس الإمتحان جزءاً من العملية التعليمية !

كان الفتى يكتشف حكمة أبيه يوما بعد يوم . ربما لم يكن يفهم كثيرا من نصائح الرجل وتوجيهاته ، وربما كان يضيق بها أيضًا ، عندما كان طفلا صغيرا . ولكنه اكتشف فيما بعد صحتها وسلامتها والقيمة الغالية فيها . أليست الحياة اكتشافا مستمرا للحقائق ، وسبرا دائما للأغوار ، أهمه اكتشاف النفس !!

أما الجزء الشفهى من الإمتحان فأنت تجلس أمام عدد من الأساتذة المتخصصين ، يسألونك وينتظرون إجابتك ، لايبحثون فقط عن الإجابات الصحيحة ، ولكن أيضًا يفحصون شخصيتك ، يدخلون إلى نفسك . كيف تنصت للسؤال ؟ كيف تتلقاه . . هل أنت خائف ، متردد ، واثق !! كيف تجيب ، كيف تعبر ؟ هل تتلعثم ، هل تثرثر بلا داع . . تختصر ، تفيض ، تخرج عن الموضوع . . هل تربط كلامك ببعضه !! ما رأيك فى هذه القضية ؟ ماذا تقول فى هذه المشكلة ؟ اذكر لنا لماذا تعتبر هذه

النظرية غير صحيحة ؟ هل تعتقد أن ما جاء بنظرية كذا أصوب مما كانت تقوله نظرية كذا ؟!

دخل الفتى هذين الإمتحانين مرتين . . فأما فى الأولى فكانت رأسه تزدحم بمعلومات كثيرة وضعها على الورق ، وعبر عنها باقتدار أمام الممتحنين . ولكن هؤلاء كانوا يبحثون - كما قالوا له بعد ذلك - عن روابط بين هذه المعلومات الغزيرة ، عن المفاهيم النظرية والفلسفية . إذن ليعط الفتى هذه النقطة ما تستحق من اهتمام ، وليتقنها ويتفوق فيها فى المرة القادمة .

نعم كانت إجابته فى المرة الثانية مرضية جداً . . إجتاز الإمتحان المكتوب ، وحصل على إعجاب الممتحنين فى جلسة الإستماع . أنصت إلى أسئلتهم . . أجاب عنها بتسلسل منطقى ، ربط وحلل وقارن . . أدار حوارا مع أساتذته . . كانت جلسة علمية شائقة . ما الفرق بينها وبين الجلسة السابقة ، الإمتحان الأول ، كان - كما قال له أحد الأساتذة - كالفرق بين الليل والنهار .

أصبح الفتى الآن مؤهلا لأن يكتب مشروعا للبحث . رسالة الدكتوراه . هذه آخر حلقة من حلقات الدراسة . مضى الفتى جادا يختار الموضوع الذى يريد أن يبحث فيه . قرأ كثيرا ، انتبه

للمـوضوعات التى يهـتم بها الكـتاب . أصغى جيداً لأسـاتذته ، اطلع على بـحوث سابقة كثيرة . . قارن بين هـذه البحوث ، ربط بينهـا ، حاول إختيار أنسبهـا . . عرض الفكره التى توصـل إليها على أستاذه - المشرف على الرسالة . أعجب المشرف بها . . أثنى عليها . . ناقشة فيها ، أبدى إقتراحات مفيدة بشأنها .

إنتهـى الفتى مـن إعداد مشروعه . . . عـقدت لجنة إستماع لمناقشة المشروع . . . دعى إلى هذه اللـجنة مجموعة من الأساتذة والمفكرين من كليات مختلفـة وتخصصات متنوعة . . كانت بحق جلسـة أفكار . تكـلم فيها الحـاضرون بقلـوب مفتوحـة وعقول مستعدة للبحث العلمـى . . أثنى الأساتذة على المشروع . . سألوا الفتى عن الأسلـوب الذى سيتبعه فى دراسة الموضـوع ، والنتائج التى يتوقع الـوصول إليها ، والوقت الذى يتمكن فـيه من تحقيق هدفه . . عـرضوا على الـفتى اقتـراحاتهم . . تمـنوا له التـوفيق والسداد . . وافقـت الجامعة على المـشروع . . وبدأ الفتى بـحثه الميدانى .

قابـل الفتى فـى بحثـه هذا صنوفـا من المديـرين بالشـركات الصنـاعية التـى اختارها عـينة للـدراسة . وكان لكـل من هؤلاء المديرين نمط إدارى وشـخصى لابد له أثره على العـمل والعلاقات

والنتائج التى يحصلونها . لـقد كانت خبرة كبيرة فى حد ذاتها أن يقابل الفتى هؤلاء المديرين ويتحدث معهم وينصت إليهم .

كان منهم المدير المنظم - رجل الأعمال - الذى تلمس نموذجه الإدارى قبـل أن تراه . فهـو مـحـدد الحديث علـى الهـاتف ، يستـفسر ، يسـأل عن الهدف . . . عـن مدة المقابـلة . . . وتجده ينتظـرك فـى الموعـــد ، يرحـــب بك ، يـقدم لك ما تطلـبه من بيانات . . . وبـعضهم كان يعقد المـقابلة فى غرفة الإجـتماعات - وليس بمكتبه - ويطلب من السكـرتيرة عدم إزعاجه بمكالمات هاتفية أو زيارات حتى تنـتهى المقابلة . وكانـت الكثرة ممن ضمتهـم عينة البحث من المديرين من هذا النوع .

وكان هـناك المدير الـودود - الإجتمـاعى ، المحب للـناس ، الذى يقـدرك ويعتبرك قـيمة غالـية فى حد ذاتك . كـان من هذا النوع شـاب فى التاسعة والـعشرين من عمـره . سعد كثيرا بـلقاء الفتـى ورحب به بحـرارة ، وانسجم مـن موضوع رسالـته . . . وأفاض فى الإجابة عن أسئلة البحث وقدم له القهوة تلو القهوة . ولم يـكتف بـذلك . . . بل إنـه دعاه إلى طـعام الغـذاء ، ودعا مجمـوعة من المديـرين - بهذه المنـاسبة ، مديـر الصيانـة ومدير المشتريات . . . وذهب الجميع إلى مـطعم مجاور ، وطعموا وهم

يتناقشون ، وعادوا إلى الشركة ومعهم الفتى ، حيث أكمل حديثه مع المدير . إهتم هذا المدير بالفتى لـشخصه ،وإعتبره ضيفا عزيزا عليه . . وسأله بدوره أسئلة كثـيرة . . عن حياته ودراسته وحاله الزواجية . . . وكأنه عثر على صديق مخلص فبثه كل صداقته .

وكان هناك المدير الباحث - المـفكر ، المتأمل . . . كان يحاور الفتـى ، يناقش النظـرية يستعـرض الفروض . . . يقدم البـيانات المطلوبة ، وفى نفس الوقت يستفـسر ويستعلم . . . كان كالباحث عن الحقيقة ، يـفكر قبل أن يتكلم ، وينـصت جيدا لمحدثه . . . أنت مع هذا النوع تمارس تمرينا فكريا ممتعا .

وكان هنـاك المدير التـقليدى - البـيروقراطى ، الـذى يوحى إليك أنه دقيـق ، لائحى ، يزن الأمور ويضعها فـى نصابها . . . مـن كـلماته : دعنـا ننظر . . . لـندرس هذا الأمر . . . رئـيسى يقـول . . . إنهـم فى الإدارة الـعلـيا يـقولـون . . . آه . . هذه البيانات سنجدها فى مكتب كذا ، عند فلان . . .

وكان المدير اللامبالى - على الأقل بالنسبة لمقابلة البحث . . . وكانوا قلة من هذا النوع . . . لم يكـن المدير هنا متحمسا لإجراء المقابلة . . . كان يجيب عن أسئلة الـفتى ، ويقدم له ما يطلبه من بيانـات ، دون إبداء أية ملاحظات . . بـل إن تعبيرات وجـهة لم

تتضمن حماسا أو تعكس رغبة فى التعاون . . . لم يتفاعل المدير مع المقابلة كما فعل غيره ، أو لعل موضوع البحث لم يثر إهتمامه . . أو ربما كان هناك تخوف من إكتشاف أخطاء واطلاع الغرباء عليها .

وكان هناك أيضًا المدير المرتاب ، الذى يشك فى الآخرين ، صادف الفتى واحدا منهم أو اثنين . . رحب المدير بالفتى ، ولكنه كان متحفظا ، يقدم الإجابات عن أسئلة الفتى ، وينظر إليه مليا ، وكأنه يريد أن يكشف خبايا نفسه . بل إنه كان يمتنع عن الإجابة أحيانا ، أو يتباطؤ فى الرد - أو يجيب باختصار . . . كان يضن بالمعلومات ، ولايفصح عنها إلا بقدر ، يفعل ذلك بحرص ، وبعد تفكير تنم عنه قسمات وجهه ونظرات عينيه .

كما كان هناك المدير غير الواثق ، أو الذى يحس بنقطة ضعف ما ، فى أسلوبه الإدارى ، أو فى نظام الشركة القائم ، أو فى العاملين لديه . . . كان أحد هؤلاء المديرين عندما يجيب عن أسئلة البحث ، يقول للفتى وكأنه يعتذر له : نحن لانتبع أسلوبا حديثا ، أو لم أقرأ من قبل فى هذا الموضوع . . . كان متعاونا جداً ، مهذبا ، يقدم البيانات المطلوبة ، ولكنه يشعر أن الأمور فى إدارته أو شركته كان يمكن أن تكون أفضل من ذلك بكثير .

ثم كان المدير العدائى ، العصبى ، الذى لايريد أن يكون صداقة معك ، وكأنه يريد أن يتخلص منك ، وأن ينهى المقابلة بأسرع ما يمكن . جاء مدير من هذا النوع إلى مكتبه متأخرا وكان الفتى قد وصل فى الموعد الذى حدده المدير ، أو قبل ذلك بدقائق . رحبت به السكرتيرة ، وقدمت له القهوة ، وأخبرته أن المدير سيجئ حالا . . ولكنه لم يظهر إلا بعد ثلاثين دقيقة من موعده . . . دلف إلى مكتبة سريعا . . دعت السكرتيرة الفتى فدلف خلفه مسرعا . . اعتذر المدير باختصار شديد عن تأخره ، وأبدى ضيقه من الفتى من اللحظة الأولى . فتح الفتى أوراقه ، وبدأ يسأل ، والمدير يجيب . . ثم ما لبث هذا أن نظر إلى ساعته فى عصبية واضحة . . . والفتى ماض فى أسئلته ، والمدير ينظر إلى ساعته . وأحب الفتى أن يلفت نظر المدير أن التأخير لم يكن من جانبه ، وإنما بسبب المدير نفسه . ماذا يقول له ؟ قال فى أدب جم : أنا أعلم أن وقتك ثمين . . ولكن أعدك لو ركزنا على ما تبقى من أسئلة فسأغادر مكتبك فورا . هنالك توقف المدير عن النظر إلى ساعته ، وقدم للفتى البيانات التى أرادها . وشكره الفتى لذلك .

ورغم اختلاف هذه النماذج من المديرين ، فإنهم جميعا قدروا

للفتى بحثه ، وشكروا له زياراته ، وإعجبوا بموضوع رسالته ، وقدموا له - بدرجات متفاوته من التعاون والرغبة - البيانات التى كان يبحث عنها . لذلك فإنه ، بعد أن إنتهى من دراسته ، أرسل إليهم جميعا - مع تحياته وشكره وتقديره - ملخصا مركزا وافيا لبحثه والنتائج التى توصل إليها .

كانت ممتعة حقا تلك الشهور التى قضاها الفتى فى جمع بياناته ، والشهور التى تلتها حين إنكب الفتى على هذه البيانات يصنفها ويجدولها ويحللها ، ويشغل فى ذلك الكمبيوتر الذى فتح له بابه ونمى حبه له ذلك الأستاذ الكندى للإحصاء . وبلغت المتعة ذروتها حين كان الفتى يجلس ويكتب رسالته . إنه الآن مؤلف ، يشرح الواقع العملى ، ويقارنه بالنظرية ، ويضيف إلى الجانبين تأملاته . ها هو يذكر آراء المفكرين ... يتفق مع بعضهم ، ويختلف مع آخرين .. ينقد ويحلل ويقارن ويستنتج ... كانت الساعات تمر والفتى جالس إلى مكتبه ، منكب على أوراقه ، مقبل على مراجعه ، يقرأ ويبحث ويكتب . ها هو ذهنة يتفتق عن أول إنتاج فكرى له .. إنه الآن يصنع ... تحت التشغيل .. أوشكت الحضانة أن تفرخه .. يكتب الفتى جزءا يسلمه لمشرفه ، يقرأه هذا ويراجعه ، يضيف

عليه لمسات ، يعيده إليه كان لهذا الأستاذ المشرف ، الدقيق ، الواعى ، العالم ، المستعد دائما لأن يقدم للفتى ما يستحق من وقت وتوجيه وحفز معنوى أثر كبير فى إنجاز البحث . يكتب الفتى جزءا آخر ، يدور دورته . ثم يشرع فى جزء بعده .. إلى أن إكتملت الأجزاء . أوشك الوليد أن يولد .

ذهب الفتى يصور رسالته الكبيرة ، يعد نسخا منها لأعضاء اللجنة ، لمكتبة الجامعة ، لمكتب البعثات المصرى ... ليقرأ الجميع ما كتبه الفتى ... وليجدوا فيه فكره وشخصيته العلمية الجديدة ... وليفيدوا بالمعلومات الغزيرة المعروضة وليلمسوا ما أسهم به الفتى فى ميدان العلم الفسيح .

حددت الجامعة يوما لمناقشة الفتى فى رسالته .. إنعقدت اللجنة ، اكتمل الأعضاء ... أدار المشرف الجلسة ... قدم الفتى وأثنى على مجهوده ... عرض الفتى لرسالته : المشكلة والبحث والتحليل والنتائج المحصلة ... بدأ الأساتذة يوجهون للفتى أسئلتهم ... حاوروه ، حاولوا أن ينفذوا إلى أعماق فكره .. كلمهم الفتى ، عبر عن وجهات نظره .. أنصت وفكر .. وقام إلى السبورة وشرح بعض الأجزاء .. أدار مع الأساتذة حوارا رائعا .. اختلت اللجنة بعدها .. ثم خرجت

لتعلن قرارها . . . يمنح الفتى درجة الدكتوراه . . ويدعو المشرف الأساتذة إلى طعام العشاء احتفالا بالفتى وتكريما له . . .

عاد الفتى - الدكتور - إلى بيته ، وأسرع إلى ورق وقلم . . وكتب يناجي أباه : وكما أهديتك شهادة الماجستير من قبل ، أهديك اليوم شهادة الدكتوراه . نعم ، لقد أهدى الفتى مجهوده جميعا ، رسالة الدكتوراه كلها لأبيه ، فكتب فى صفحة الإهداء بها : إلى أبى ، أستاذى الأول . . . كم يود لو طار الآن إلى القاهرة ، وعانق أباه . وقبل يديه الكريمتين . . لقد إنتهى من رسالته . . إنتهت مهمته . . فليعد الآن . . نعم ليعد إلى وطنه الحبيب ، إلى أبويه الرحيمين ، إلى جامعته . . . فليكتب إذن إلى المعهد الدولى الذى أشرف على تعليمه ، وليكتب للمكتب الثقافى المصرى الذى أكمل مهمة المعهد . . . وأخذ الفتى يمهد لنفسه ذهنيا وعاطفيا للعودة إلى بلده مصر .

☆ ☆ ☆

وكان يوم التخرج . . . يوم تمنح الجامعة الشهادات المختلفة لطلابها . . . وهو يوم خالد فى ذاكرة هؤلاء الطلاب . . إذ ينقسمون إلى مجموعات . . طلاب مرحلة الشهادة الجامعية . . . وطلاب مرحلة الماجستير . . . وطلاب مرحلة الدكتوراه .

إصطف الجميع فى موكب مهيب . يلبسون الأرواب الجامعية السوداء ، وتغطى رءوسهم قبعات مربعة سوداء ، تتدلى منها أشرطة سوداء ممتلئة الخيوط ، تشبه ذلك الشريط الذى يتدلى من الطربوش المصرى أو التركى القديم ، والذى كانوا يسمونه الزر - أسود أو أزرق . هؤلاء خريجو الهندسة ، وهؤلاء خريجو الطب ، والعلوم ، والزراعة ، والعلوم السياسية ، والإدارة ، وعلم النفس . . . وهؤلاء الحاصلون على الماجستير . أما الدكاترة فلهم مكان مميز مستقل . وكان ضمن طقوس التخرج أن يقف الحاصل على شهادة الدكتوراه . . ويقرأ أحد العاملين - أمام رئيس الجامعة وعلى الملأ - نبذة صغيرة عنه : إسمه ، تخصصه ، الشهادات السابقة التى حصل عليها . . . ثم تنتهى هذه النبذة بأن يعلن رئيس الجامعة منحه لشهادة الدكتوراه .

كان يوما جميلا من أيام الربيع . . . كان الجو يميل إلى البرودة ، منعشا ، نديا ، كأنه يرحب بالخريجين ويحتفل بهم . . ولكن السماء كانت تمتلئ بالغيوم . . . بدأت إجراءات الحفل ، وأمطرت السماء مطرا خفيفا ، وهبت أنسام رقيقة تداعب الوجوه والشعور . . الجميع واقفون . . وأهالى الخريجين وعائلاتهم وأصدقاؤهم يجلسون فى منصة خاصة بهم يتابعون الحفل ،

وينظرون إلى أولادهم وأصدقائهم بإعـجاب ، وينتظرون تخرجهم بلهفـة . . . واشتد المطر . . وقام رئيس الجـامعة خطيبا ، يـتكلم من تحت مظلة ، يهنئ الخريجين ويثنى على مجهوداتهم . ويتمنى لهم مستقبلا زاهرا . ثم سأل الجموع المحشودة : حيث أن السماء تمطـر مطرا غـزيرا ، هــل تحبون طـقوس التخـرج القصـيرة أم الطــويلة ؟ وســمع هديـرا من الطـلبة الواقـفين : القصــيرة ، القـصيرة . . . فـقال : إذن أعـلن أن الجامـعة تمنـحكـم جميـعا شهاداتكم ، كل فى مجال تخصصه . . . ولوح بيده للحاضرين ، وإنصرف .

صفق الحـاضرون ، وهرول الطـلبة يحـتمون من المـطر . . وأسرع الأهل والأصدقاء يتصافحون ويهنئون . . كان هناك شعور عام بالـفرح . . . وأحس « الدكـاتره » على فـرحتهم بـشىء من الإحباط . فقد كان كل منهم ينتـظر أن يسمع ويُسمع الناس إسمه وتخصصـه وإنجازه العلمى . إنـها حاجة إثبات الـذات ، إعتراف الآخريـن ، التى يـود الإنسـان أن يشبـعها . مـا أجمـل أن يرى الإنسان تقدير الآخرين وإحترامهم له وإعترافهم بإنجازاته !

ولكن لابأس ، ستصل إلى هؤلاء الدكاترة شهاداتهم الرسمية مكتوبا فيهـا بتوقيع رئيس الجامعة أنهم قد مـنحوا الدرجة ، ولهم

كافة حـقـوقهـا ومزاياها وشرفـها . وحتى تـعـد هذه الـشهادات وتوقع ، فقد وصـل إلى الفتى - وإلى غيره مـن الدكاترة أيضًا - كتـاب من عميـد الدراسات الـعليا يـهنؤه فيـه بانتـهائه من كـافة المتطلبات التى إشترطتها الجامعة للحصول على الشهادة . . ويقول له : إنك تحصل اليوم على إعترافنا الصريح بالمجهود الشاق الذى بذلـته . وإنك من الآن فـصاعدا سـتحمـل إسم هذه الجامـعة ، بصمتها ، شـعارها . . ونرجو أن تكون مثلنا فـخورا بهذا الرباط الوثيق . ثم يتمنى له السعادة والنجاح .

أكمل الفتى بـفضل الله مسيرته . . ووصل إلى نهـاية مرحلة جادة هامة فى حـياته . . نهاية حلقة مـحكمة كانت أشبه بـالقلعة الحصيـنة لايقتحـمها إلا جنـدى همام ، فارس شجـاع . . . تبدأ بعـدها مرحـلة أخرى هـامة ، حلقـة محكـمة أخرى . . الحـياة العملية ، الوظيفة ، التجارب ، الإخـتبار الفعلى للشهادة التى تم تحصيلها .

٦

الحب ...

وقد ينتقى عقد لنحر مؤمل

ويحسن قبل العقد أن ينتقى النحر

☆ ☆ ☆

إذا شئت أن تلقى المحاسنَ كلها

ففى وجه من تهوى جميعُ المحاسنَ

☆ ☆ ☆

فلولا زفيرى أغرقتنى أدمعى

ولولا دموعى أحرقتنى زفرتى

☆ ☆ ☆

هل نسى الفتى قلبه الذى يخفق بين جنبيه ؟ هل كان يكتم عواطفه التى يجيش بها صدره ؟ أم تراه إنشغل عن الحب برحلته الدراسية ؟ أم أن نشأته الصعيدية منعته من ذلك ، حيث التعبير عن العواطف يكون بحساب وحذر شديدين ؟ هل لمثله أن يحب ويتزوج ؟

يستعرض الفتى شريط حياته . . أنه إلى الآن لم يستقر . كل مكان نزل فيه هو مكان مؤقت . كان فى مرحلة الجامعة دائم السفر ، من الصعيد إلى القاهرة . يروح إذا كانت الدراسة ، ويجئ إذا كانت إجازة نصف العام . ثم يعود للدراسة ، ويذهب لبلدهم مرة أخرى فى الصيف . حتى اجازة الصيف ، كان يقضيها بين المدينة والقرية . فمن بيت أبيه فى البندر ، إلى بيت جده فى الريف . . . حيث الصفاء ، والهدوء ، والخضرة الجميلة التى كان يراها فى عيون الفلاحين . كان يذهب إلى حقول أخواله ، فى العصر ، عندما تنحسر حرارة الشمس . . . كان يتعلق بخاله الذى لايكبره كثيراً . . . يركب « النورج » ، ويشهد بناء الطوب وحرقه ، يشرب الشاى الداكن ، ويجلس قبل غروب الشمس فى حديقة خاله ، يسمر مع ابن خالته وأقاربه . . يقطفون فاكهة طازجة ، يتندرون ويضحكون ، وينتظرون نتائج امتحان آخر العام .

هل نجحت يا بنى ؟ يسأله أخواله ، شد حيلك ، إنجح ، ليس لك إلا سلاح العلم . أبوك رجل تعليم ، علم أجيالا . هل ستكون مثله ؟ ياليته يكون كذلك . تظهر نتائج أقاربه فى كليات أخرى . . وهو لايزال ينتظر . . . لماذا تتأخر النتائج هكذا . . . حتى شهر أغسطس . . . الصيف يوشك أن ينتهى . فرحة النجاح لاتدانيها فرحة . . يحوطه أقاربه بالإعجاب . . يحدوه الأمل أن تمر السنوات سريعة حتى يصل إلى نهاية الطريق ، أو بدايتها . . . يكاد الفتى يلهث طول العام ، ذهابا وإيابا وانتظارا .

كتب مرة فى مجلة الكلية مقالا عن انتظار النتائج ، قال فيه ضمن ما قال : إن الإنتظار صعب ، وإنه يصبح جحيما لو أننا كنا نعلم ما سيحدث لنا بعده . . إن من نعم الله علينا أننا نجهل ماذا يخبئ لنا القدر ! لو عرفناه أصبحت حياتنا عذابا . . فلو كان خيرا لقتلنا الشوق إليه ، ولو كان شرا لقتلنا الخوف منه .

كانت هذه عادة الفتى لزمن طويل . . . يفزع إلى قلمه . . يتحرك الأديب داخله . . يودع الورق خواطره ، ويبثه أحزانه . . . كانت كلماته التى تضمها أوراق كثيرة وكراسات مبعثرة هنا وهناك ، كطلقات الرصاص . . . كالزفير الحار . . . يحكى بها سعادته وعذابه ، أفراحه وأتراحه . . . أوراق كثيرة

أسمى بعضها ذكريات ، والآخر يوميات . . . والبعض الآخر قصصا قصيرة . نشر بعضها فى مجلة الكلية التى كان يدرس بها بالقاهرة . . . استوحاها من الريف والحضر . . . غالية ، صابر أفندى ، يوميات شاب ، لم يمت حبهما ، الثأر ، وجاء الربيع ، الحرمان ، فى موكب الجمال . . .

يذكر الفتى أنه عندما كان صبيا صغيرا . . على مشارف المدرسة الثانوية . . . كانت تسكن بجوارهم مدرسة حسناء ، سمراء ، رشيقة ، رقيقة . . . كان يراها من شرفة منزله تروح وتغدو فيعجب بها كلما راحت ، ويعجب بها كلما غدت . . . كان يتابعها بنظراته البريئة . . ونما إعجابه بها يوما بعد يوم . . .

كانت مدرسة لأخته . . . مرة دس الصبى فى كتاب أخته ، رسالة رقيقة للمدرسة الحسناء . . . بثها فيها أشواقا حارة . . كانت تحرقه حين عبر عنها وقبل أن تصل إلى الورق . . وتكاد تحرق الورق المكتوبة عليه . . ولابد أنها أيضًا كانت تحرق من يقرؤها . . كلمات بسيطة بريئة صادقة . . إستعارها من الأدباء والشعراء الذين كان يقرأ لهم . . . كلمات تنم عن قلب بكر يتفتح لأول مرة .

غضبت المدرسة ، أو هكذا أظهرت . . ندم الصبى . . خاف

أن يسمع أبوه بالخبر .. كتمت أخته أمر الرسالة . . . أعادتها إليه : خذ أوراقك هذه التى نسيتها فى كتابى . . . طوى الصبى أحزانه .. أغرق فى التفكير .. ترى هل قرأت المدرسة كتابه ؟ هل أعجبها ؟ لابد أنها ضحكت من سذاجة عواطفة - كما فعل هو ذلك بعد فترة ! إنها تكبره بسنوات .. هل وبخت أخته لذلك ؟ هل سعدت بأن أحدا يعجب بجمالها ويخطب ودها ، حتى ولو كان صبيا صغيرا ؟! وهرع الصبى إلى كتبه وكراساته .. يقرأ ويدرس . . . فالإمتحانات قادمة .. ولينس ما حدث ولايعد لذلك مرة أخرى . . .

كان الفتى يخلو إلى أوراقه وكتبه . . . وكان يرى فيها أصدقاءه المخلصين ، يقرأ ويكتب ويقرأ . . . كان يحس بشىء من الغربة داخل نفسه ، لايبددها إلا تسجيل خواطره ، أو قراءة عميقة لكتاب .. ولكن لماذا هذه الغربة ؟ ألأنه لم يستقر بعد ، ولازال يتنقل من مكان إلى آخر ؟ هل هى تلك المرحلة من العمر التى يحس فيها الشباب بفجوة الأجيال ، فلا يصل الكبار إلى الصغار ولايفهمونهم ، ولايقدر هؤلاء أولئك ؟ هل بسبب تلك الآمال العريضة التى تسكن قلب الفتى الصغير ؟ هل لأنه لم يصادف القلب الكبير الذى يحبه ويأنس إليه ويبدد وحشته ؟ ربما كان كل ذلك سويا !!

ورغم أن الفتـى كان سريع التأقـلم ، سهل التآلـف ، مقبلا على الآخرين بود وقلب مفـتوح . . . ورغم أن الناس كانوا أيضًا يقبلون عليه ويألفونه ويحـبون صحبته . . إلا أنه كان يحس بتلك الغربـة إذا خلا لنفسه . . . شـعور غامض بالوحـدة . . . بوجود مسافة أو حـدود نفسية تفصـله عن عالمه ، عن ذاتـه أحيانا . . . كان كما قال المتنبى :

بـدوت وأهلـى حاضـرون وإن دارا لست من أهلها قفر

أراد مرة أن يعيـش قصة حب . . كتلـك التى يقرأ عنـها فى الروايات . . . فقرر وهـو يقترب من المرحلة الأخيـرة فى الجامعة بمصر أن يـحب !!. وهل يقـرر الإنسان أن يحـب ؟ نسج لنـفسه قصة حـب مع إحدى زميلاته . . فـتاة سمراء وديعة ، رقـيقة ، لطيـفـة المعشر . . . انـسحب سريعـا . . إنه لايستطيـع أن يتزوج الآن . . إنه مـازال طالـبا . . كيـف يبنى أسرة . . روعـته الفكرة . . لم يرد أن يظلم الفتـاة . . نسج فى خياله قصة عذاب وهجـر . . . فزع إلى كتبـه ينهـل مـنها ويستزيـد . . يريد أن ينجح . . وهرع إلى قلمه يكتب تحت عنوان خفقات قلب :

اليـوم . . يوم الذكريـات . . مضى عـام ، يا لها مـن أيام ، تمضى مسرعـة ، كأنما تطارد ، والحوادث تجرى تباعا سـراعا كأنها

فى سباق . والحب . . آه . . أين حبى بين هذا الخضم الزاخر ؟ إنه ضائع . . كالحقيقة . . تائه . . . كذاتى ، اليوم أشرف على مكان لقائنا ، وفراقنا أيضًا . يا إلهى . . كيف تغيرت صورته ؟! إن الجدار هو الجدار . . والعشب الأخضر هو العشب الأخضر ! وأزهار البنفسج هى بعينها تملأ الحديقة ، رائعة تميل مع النسيم . . ولكن أبدا . . لكأن شيئًا خفيا ألقى على هذه الأشياء جميعا ، فأصابها بقتام . . فلا تكاد ترى أوَ يحس بها حتى يسرى الألم فى العروق ، كأنه النار ، أو كأنه مس الكهرباء . . . ماذا تقول أيها القلب !! ما بال دقاتك تتلاحق كأنك تجرى وراء شىء بعيد . . ماذا . . . أتبكى أيها القلب . . رفقا بك وبى . . .

كان الفتى يميل إلى الحزن . . . كانت مسحة من الأسى تكسو وجهه الصغير المستدير .وتظلل نظرته الحائرة ، المفكرة فى الأمور من حوله . ربما كانت المسئولية التى أحسها مبكرا ، وربما كانت الجدية التى غرسها فيه أبوه . . وربما كانت مشاعر الأهل تجاه أبنائهم إذا نجحوا أو فشلوا . . . أو لعله التراث الشعبى - من أهازيج وأغان ، تزخر بالألم والأنين والبكاء . . . أليس الموال ملحمة من الحزن والشكوى ؟ سهر وسهد وعذاب !! حتى أغانى الفرح يشوبها بعض الحزن . . . حتى الناس عندما

يضحكون كثيرا ، تجد بعضهم يتداك الموقف ويدعو « اللهم إجعله خيرا » . وكأنهم يستكثرون الفرحة على أنفسهم ، أو لا يصدقون أنهم مسرورون ، أو أن القاعدة - وليس الاستثناء - أن يكونوا حيارى منكسرين .

بل إن هناك وظيفة متخصصة كانت تحترفها النساء قديما . . . وهى وظيفة « المعددة » أو الندابة . . .! وهى إمرأة ترتاد المآتم ، بدعوة أو بدون دعوة ، أو يستأجرها أصحاب المأتم أحيانا . . . مهمتها أن تشعل فتيل الحزن ، وتؤجج نار اللوعة بين النساء ، فتراها تصرخ مرة ، وتولول أخرى ، تلطم ، تتلوى ، وتقول كلاما « يبكى الحجر » . . . وما أن تسمع النساء صراخها وكلامها وترى لطمها . . . حتى ينتشر العويل بينهن انتشار النار فى الهشيم .

ورغم أن النساء فى القرى وربما فى المدن أيضًا - وفى هذه المناسبات بالذات ، لايحتجن لمن يحرك دموعهن . . فهن يبكين وهن حزينات ، ويبكين وهن فرحات ، ويبكين أيضًا بين ذلك . . . فتجد نساء كثيرات عندما يذهبن للعزاء ، ما أن يسلمن على أهل البيت - أو حتى قبل ذلك بقليل - حتى تتدفق قرب من عيونهن ، وتجرى سيول على ألسنتهن . . . ولكن المعددة أو

الندابة كانت تنشط كل ذلك ، وتوجهه ، وتحكم إيقاعه . . . فقد كان مجرد ظهور هذه المرأة يعد النساء للحزن ، ويهيؤهن نفسيا ووجدانيا للعمل تحت قيادتها ، وكأنها تمسك عصا سحرية تمر بها على عيونهن فتنهمر منها الدموع ، وعلى قلوبهن فتتفجر منها الأوجاع . . . فإذا أخذت الندابة مقعدها بينهن ، أجهشن بالبكاء ، وعلا نحيبهن ، ودعين معها بدعوى الجاهلية . . . إنها مايسترو المأتم . . عازفة الآلام . . موسيقار الأسى والأحزان . . .

كان منظر هذه المرأة يثير فى نفس الصبى الصغير شيئًا كثيراً من الخوف ، وشيئًا كثيراً من الكره . . وشيئًا كثيراً أيضًا من الاستنكار ، لها وللمهمة التى تؤديها . . . معددة . . . وتعدد المرأة بلغة القرية أى تتحسر على حالها بعد وفاة عزيز لديها . . . وربما جاءت الكلمة من أنها تعدد مآثر الشخص المتوفى ، أو تعدد جوانب خيبة الأمل التى تصيبها من فقدانه . . . أو تعدد الجوانب السلبية فى حياتها وفى حياة القرية التى لم تتغير حالها منذ سنين . فهى تندب حظها وحظ من معها وكل شىء حولها .

تمضى الأيام بالفتى ، غير مستقر ، يذهب إلى القاهرة يدرس ، ويعود إلى الصعيد يستريح ، يقرأ ، ويلعب ، ويمضى

بين الحقول الخضراء ، شىء غامض جميل يشده إلى هذه الحقول ، إنها الخضرة الساحرة ، والهدوء الشامل ، والصمت البليغ ، والصبر الذى يميز هؤلاء الفلاحين البسطاء . الذين تكسو وجوههم سمرة رائعة ، وعرق صادق يعكس المجهود الخارق الذى يقومون به ، بأدوات بدائية بسيطة . . وحيوانات طائعة ذلولة . . . الجاموس والبقر والجمال والحمير .

كان الفتى ينظر إلى الجمل بشىء من الإعجاب ، والخوف أيضًا . . . كان يثيره رابضا فى الحقل . . ويثيره حين يمشى أو يجرى حاملا صاحبه وحاجياته . . وكان يثيره أيضًا حين يجتر طعامه . . . إن أسرارا كثيرة تكمن فى بطن هذا الجمل ، ونفسه ، وعينيه . . إنظر إلى عينيه ! إنه ينظر ، يرى ، يحس ، يكاد يتكلم . . . كان الفتى أحيانا يرتعد خوفا منه . . . وكان يرى شرطة الهجانة تركب الإبل ، فيخاف من كل من الجمل والجمال ، كلاهما صامد ، صابر ، جامد ، غامض ، وكأنه خزانة مغلقة لا يستطيع الفتى أن يفتحها أو حتى يجرؤ على الإقتراب منها . . .

تذكر الفتى قطعان الإبل الكثيرة التى رآها فى الصعيد وإقترب منها وخاف من بأسها ، وربما أحبها أيضًا ، عندما زار حديقة

الحيوانات الكبيرة بمدينة نيويورك . وكانت معه إحدى زميلاته وكان بين الحيوانات الكثيرة جمل كبير .. نظرت إليه الفتاة الأمريكية بإعجاب .. قال لها الفتى إنه رأى كثيرا من البعير فى صعيد مصر ، وإن أخواله يمتلكون عددا منها يشغلونها فى الحقول .. دهشت الفتاة كثيرًا ... كانت تظن أنه حيوان نادر منقرض ، لايرى فقط إلا فى حدائق الحيوان .

☆ ☆ ☆

لم يخفق قلب الفتى إذن .. ولم يعثر على الفتاة التى يمكن أن تكون شريكة حياته .. أو أنه لم يبحث عنها . وهل حقيقة يبحث الإنسان عن حبه ؟! هل يحب بإرادته ؟! أم أن الحب شيء يأتيك فجأة .. يأخذك .. يملأ عليك وجدانك !!

لقد قابل الفتى فى حياته قبل البعثة كثيرًا من الناس ... جذب انتباهه كثير من النساء .. ولكن يبدو أنه أغلق قلبه أو فكره !! أو لعل إنشغاله ببناء مستقبله منعه من التفكير فى الزواج . وهل يمنع الزواج الإنسان من التفكير فى مستقبله ؟

إنه مازال شابا على أية حال ... وإنه يتذكر نصائح أساتذته والرجال الذين يكبرونه فى العمر والخبرة أيضًا ، بشأن الزواج

قبل أن يسافر إلى أمريكا . لقد إنقسم هؤلاء إلى فريقين . أحدهما ينصحه بالزواج فوراً ، وقبل أن يسافر . وحجتهم فى ذلك العصمة والعفة . . وأن يتقاسم الطرفان - الفتى وزوجه - خبرة واحدة ويكتسبا تقدما ونموا واحدا . ويعينا بعضهما على الغربة ويبنيا سويا مستقبلهما المشترك .

أما الفريق الآخر فدعواه أن الطالب المبتعث سيكون مشغولا بالعلم والتحصيل ، ويجب أن يتفرغ لذلك . . . وأن مشكلات الزواج والأطفال فيما بعد ستعطله عن مسيرته . لذلك يجب أن يسافر وحده - يدرس ويتعلم وينضج ويعترك الحياة . . . ثم يفكر بعد ذلك فى الزواج .

وربما كان هناك حل ثالث . . . وهو أن يسافر الطالب وحده لفترة قصيرة . . حتى إذا إستقر واطمئن وألف الوضع الجديد ، يمكن أن تلحقه زوجه . . . فهو يقضى المرحلة الأولى وحيدا متفرغا لمواجهة الحياة الجديدة ، ثم يتيح الفرصة لشريكة حياته أن تقتسم معه جزءا من خبراته وتعاونه فيما تبقى من مسيرته .

أنصت الفتى إلى هذه الآراء جميعا . . ولكن مرت به الأيام سريعة . . . حتى وجد نفسه يستعد للرحيل . . . وها هو يعيش فى مجتمعه الجديد ، الذى أحبه واندمج فيه ، وأقبل على

المشاركة فى الأنشطة العلمية التى أحبها ، واكتشف من خلالها أساتذة وكتابا ومؤلفين تأثر ببعضهم وأعجب بهم .

بل إنه إلى جانب ذلك إكتشف نفسه ، تآلف معها . . . تبددت تدريجا تلك الغربة الداخلية . . . ماذا حدث ؟ إنه الاستقرار والاطمئنان النسبى للمستقبل ، والنجاح والتقدم على الطريق والثقة بالنفس . . تجعل الإنسان يقف على أرض صلبة . . وينطلق من منطلق قوى .

ماذا عن القلب الآن ؟ يتذكر أنه فى الأيام الأولى من البعثة دعى فى مدينة مجاورة إلى حفل (بارتى) وهى مناسبة إجتماعية يتقابل فيها الناس ، يسمرون ويرقصون ويأكلون . . إلتقى الفتى فى هذا الحفل مع فتاة أمريكية . أنس لها وأنست إليه . . تحدثا كثيرا . . وافترقا بعد أن تبادلا العناوين . . ووصله منها كتاب بعد أسبوع واحد . . كان كتابا رقيقا تشرح فيه الفتاة فرحتها بلقائه ، وسعادتها بالحديث معه . ووقعت الخطاب باسمها مسبوقا بلفظة الحب . . وهذه إحدى عادات الأمريكان حين يكتب الأصدقاء لبعضهم ، يصحبون توقيعهم بكلمة الحب ، أو كل الحب . . . تأكيدا لأواصر الصداقة ، أو تعبيرا عن حب حقيقى ، أو لإضفاء لمسة جمال على ما يكتبون ، أو محاولة لإسعاد من يراسلونهم ،

أو لعلهم يتمنون أن يكون هناك حب ، أو لأنهم يفتقدونه فى الواقع فلا أقل من أن يثبتوه على الورق . . . .

على أية حال . . كان هذا الكتاب مصدرا عميقا لسعادة الفتى . . . قرأه مرات ، ووضعه فى غلافه بعناية . . . وكان يفضه بين الحين والآخر يقرأه ثانية . . ويقف عند كلمات بعينها . . هل سعدت الفتاة به حقا . . . كانت حاله هذه مثل أغنية ليلى مراد القديمة : جواب حبيبى قريته واللى أقراه أعيده وأزيده . . . .

وكتب الفتى يرد على فتاته . . . وأودع فى كتابه أشواقا كثيرة وتعبيرا بليغا عن سعادته . قص عليها كيف وجد كتابها فى صندوق البريد ، وفرح به ، وأخذه بيد حانية ، وضمه إليه برفق . . . وصعد إلى غرفته وقرأه بشوق وأعاد قراءته . لقد وصف لها بدقه ما كان يجيش فى صدره من أحاسيس . . . وكأن الكتاب كان إشارة مرور خضراء لعواطفة أن تنطلق .

ولم يصله رد من الفتاة . . . وانشغل هو بأمور كثيرة ، وسرعان ما نسى هذه الفتاة . . وربما ضحك من سذاجة عواطفة . . هل خفق قلبه فعلا ؟ بالطبع لا . . ولكنه الشوق للحب ! التطلع لتجربة هذا الشىء الرائع ، الذى كتب مرة يصفه

فى يومـيـاته حين كان طـالبا بالجامـعة بمصر - دون أن يقــع فيه - بالملاك الرقيق الذى ينشر أجنحته على القلوب فيمسها مسا رفيقا ، يرهف إحساساتها ويرقق شعورها .

☆ ☆ ☆

ومرة قابل فتاة ، عرفه الأصدقاء بـها . كانت تعيش فى نفس الولاية ، ولكن فى بـلدة أخرى بعيدة وتأتى إلى البـلد الذى يقيم فيه الفتى فى زيارات متقطعة . تآلفا سريعا . كانت تحب مصر حبا جما ، وتحلم بالـسفر إليها . . . كانت مولعة بتـاريخ مصر القديم الذى درسـته وهى طفـلة صغيـرة . أعجبهـا الفتى . . ارتـاحت لبساطـته وسعدت بصداقتـه . وكان يحب لوحة لرسـام مشهور ، وكانت هى أيضًا تحـب هذه اللوحة . عبرت عن هـذا التوافق فى الذوق بأنه فأل طيب .

هل يمكن أن تكون هذه الفتاة هى زوجة المستقبل ؟ ولم لا ؟ انها جمـيلة ، مبتسـمة سعيدة ، مرحـة ، تشيع حولهـا جوا من السعادة والمـرح . . . ما الذى يمنعه ؟ الخوف ؟ . . لاتـزال الطريق أمامه طويلة . . ولكن ، لماذا يـرسخ فى ذهنه أن من الصعب أو المستحيل الجمع بين الدراسة والزواج !!

إفترق الإثنان . . حزنت الفتاة ، وكذلك الفتى . . أحس أن

شيئًا سلب منه . ولكن كانت لديه القدرة والإستعداد الذهنى والنفسى أن يبتلع أحزانه . فوجه إهتمامه مرة أخرى لكتبه وإمتحاناته . . إنه يريد أن يفوز فى سباق الدراسة ، ولايهمه بعد ذلك نجحت عواطفه أم فشلت .

☆ ☆ ☆

ومرة قابل فتاة أخرى . . كانت تعمل مدرسة فى المرحلة الإبتدائية فى إحدى المناطق المجاورة . . . تعرف عليها فى إحدى المناسبات . أعجبها وأعجبته . . كانت جميلة الوجه هادئة الطبع . . أنيقة ، بسيطة ، غير متكلفة فى حديثها أو ملبسها . كان حبها للفتى ينمو يوما بعد يوم ، أرسلت له مرة بطاقة فى أحد الأعياد . وفوجئ الفتى أن تلاميذها ، الأطفال الصغار ، بنات وأولادا ، كتبوا معها هذه البطاقة . . زينوها بخطوط جميلة ، رشقوا فيها رسوما بسيطة ، عبروا عن سعادتهم بكلمات عذبة بريئة تعكس ما فى نفوس الأطفال من تلقائية وعفوية وحب . . . أحب الفتى كثيراً هذه البطاقة وإحتفظ بها ورأى فيها نموذجا للحب والود والروابط التى يمكن أن تجمع الناس فى كل مكان بغض النظر عن أجناسهم وألوانهم ومواطنهم .

كان الفتى يشعر بسكينه إذا قابل هذه الفتاة . . وكانت هى

أيضًا تشعر بسكينة وإطمئنان كبير . . وكانت تعبر له عن ذلك . . كما كانت تعبر عن قلقها وخوفها من أن تفقده . كانت تعلم أنه يعيش فى أمريكا مؤقتا . . وأنه سيعود إلى وطنه عاجلا أو آجلا . ومن ثم لم تحاول أن تفرض صداقتها عليه . . كانت رقيقة المشاعر مرهفة الحس . . حمل لها الفتى كل ود وإعجاب وتقدير .

ومرة كان الفتى على سفر . . كان ينتظر الباص فى محطة النقل الرئيسية . . . وهناك قابل فتاة ، شقراء ، ذات جاذبية هادئة ولكنها تستولى عليك من أول نظرة . . . تعرف بها . . كانت مسافرة إلى بلد آخر غير التى يقصدها الفتى . . . كانت تعيش فى ولاية بعيدة . . . دعاها إلى فنجان من القهوة . . تكلما فى أشياء كثيرة . . أحس كأنه يعرفها منذ زمان طويل . لم يتوقف الإثنان عن الكلام ، وكأنهما يريدان أن يقولا لبعضهما كل شىء خلال هذه الساعة التى ينتظران فيها الباص .

إنشغلا عن كل ما يجرى حولهما . . .

وكأن هذه المحطة التى تموج بالناس . . يجرون هنا وهناك . . يلحقون بسياراتهم ، ويشترون تذاكرهم ، ويأكلون وجبة سريعة يتصبرون بها على ألم السفر ، أو يتناولون مشروبا يروى

ظمأهم . . . هؤلاء أولاد يستقبلون أباهم . . . وهذه زوجة تنتظر زوجها العـائد من سفر طويل . . وهـذه أم تلملم أطفالـها الذين يلعبون ويحاولون الإفلات من رقابتها . . .

كأن هذه المحطة التى يجرى فـيها كل ذلك . . . قد خلت إلا من الفتى والفتاة يجمع بينهما ود سريع تكون فى لحظات . . . أو كأن الجمـيع توقف ، وصمـت ، ليتيح للـشابين أن يتكـلما ، أو ليسمع همسهما . . .

ولكن لمـاذا يمضى الوقت هـكذا سريعـا ؟ ما لعقارب الـساعة تجرى ، كأنها تريد أن تسلبه حلمه ، تلدغ أحاسيسه ؟! لماذا يحس الإنسان أن الـوقت الجميل يمـر بسرعة البـرق ؟ إنها السعـادة التى ترفرف عليه . . والخوف أيضًا من فقدانها . . . إنه يريد أن يعيش كل لحظة فـيها ، يتمنى لـو توقفت الساعـة عن الدوران !! ولماذا يحس الإنسان من جهة أخرى بالوقت التعيس يزحف بطيئًا ثقيلاً ؟ هل هناك وقتان ! ساعتان ! نوعان من الدقائق والثوانى ! أحدهما يسـعى خفيـفا والآخر لايكـاد يقوى علـى الحركة !! إنه ادراكـنا للوقـت هو الذى يعـطيه هذه المـعانى المختـلفة . . ادراكنـا الذى يعكس شعورنا ويتلون بأحوالنا النفسية والعاطفية .

لم يدر الإثنان إلا وموعد الرحيـل قد حان . . ولم ينتبها إلا

على إعلان قيام سيارتيهما . ودع الفتى فتاته . . شدت على يده . . تبادلا الأمانى الحلوة . . ركب كل منهما فى سيارة . . كان طريقاهما مختلفين . . لوحا لبعضهما . . . أدار السائقان محركيهما الضخمين ، فأصدرا هديرا مخيفا ، كأنه إعلان بالفراق . ولم يدر هذان السائقان أبدًا عندما توجها فى طريقين مختلفتين أنهما قد فرقا بين اثنين . . قلبين . . كان يمكن أن يكون بينهما شأن كبير . . . كتب هذه القصة بعد أن عاد إلى البلدة التى يقيم فيها ، ونشرها فى المجلة الأسبوعية للجامعة . . لقد اعتاد أن يعبر عن عواطفه بالعربية ، ولكنه اليوم يكتبها بالإنجليزية . . . قالت له إحدى زميلاته مداعبة بعد أن قرأت مقاله : هذه عواطف رومانسية ، نفتقدها نحن الأمريكان .

☆ ☆ ☆

صادف الفتى أثناء دراسته عددًا كبيراً من الفتيات . انجذب إلى بعضهن ، استهواه جمال البعض الآخر ، وأعجب بشخصيات فريق ثالث ، وإستولت على فكره ثقافة فريق رابع . . . ولكنه لم يكن ممهدا نفسيا للإرتباط بشريكة عمره .

مرة كان يقرأ مجلة الريدرز ديجست ، ومرت عيناه على أحد الإختبارات التى ينشرونها للناس ، يساعدونهم بها على اكتشاف

جوانب من حياتهم الشخصية والإجتماعية . وكان هذا الإختبار : اعرف اسم زوجك المستقبلة !! فرح الفتى لذلك كثيراً . . أعد لنفسه قدحا من الشاى . وجلس يجيب عن أسئلة الإختبار ، واحدا بعد الآخر ، بتركيز وعناية شديدين ، يسجل أرقامه ، ويطرح ويجمع ، ويضع الحروف إلى جانب بعضها - تمامًا كما تقول إرشادات الإختبار . ماذا وجد فى النهاية ؟ وجد اسمه هو مسبوقا بكلمة « مسز » أى زوجة فلان !! إغتاظ الفتى قليلاً . . وضحك أيضًا . . ثم اكتشف فى نهاية الإختبار أنه واحد من تلك الإختبارات الفكاهية ، الخادعة كما يسمونها ، لأغراض التسلية والترفيه !!

ويوما وجد عند عودته إلى منزله . مغلفا كبيراً فى صندوق البريد ، عليه طوابع بريد استرالية . ممن هذا يا ترى ؟ إنه لايعرف أحدا فى إستراليا . ! ولكنه مرسل إليه بالتأكيد ، فهذا اسمه واضح على المظروف . . . أخذ الفتى المظروف ، وفضه ، فوجد فيه كتابا ودليلا وخريطة وصورة .

أما الكتاب فكان نبذة مختصرة عن تاريخ إستراليا ، وما هى عليه الآن من تقدم حضارى ، وأنها تسير على الدرب محققة تقدما أكبر ، وصناعة أقوى ، وحضارة حديثة ، وكيف أنها

أصبحت أرض الفرص ، كما كانت أمريكا الأولى - وما زالت - بلد الفرص أيضًا .

وفى الكتاب دعوة مرحبة مفتوحة دافئة أن يهاجر الفتى إلى إستراليا ، إنهم يبحثون عن الكفاءات . يقرأون الأسماء فى الجامعات العالمية ، ليستدلوا على أولئك الذين يدرسون للدكتوراه أو الماجستير ، وشتى الشهادات العلمية فى مختلف التخصصات ، والمواعيد المتوقعة لإنتهائهم من دراستهم ، ويدعونهم لبلدهم - بوتقة كبيرة تنصهر فيها القدرات المتنوعة تشارك فى بنائها ونهضتها وتطويرها .

أما الدليل والخريطة ، فيريدون أن يعرفوك من خلالهما بهذه القارة الشاسعة الواسعة ، البكر الخضراء ، الجميلة . . . التى تنتظر من يعمرها ويرقى بها .

وأما الصورة فكانت لفتيات أستراليات - خمس منهن ، جميلات ، وفى الكتاب إشارة تقول : وقد يطيب لك المقام فى استراليا ، فتقرر أن تستقر فيها وتتزوج وتبنى أسرة المستقبل . وهذه صورة للفتيات التى يمكن أن ترتبط بإحداهن .

أثلج الكتاب صدر الفتى ، واحتفظ به طويلا . أجمل شىء أن يجد الإنسان فى الآخرين رغبة إليه ، وإقبالا على

صحبتـه . . . إن ذلك يشعره بقيـمته . . . يمده بالأمان . . يـعينه على المضى قدما فى طريقه ليحـقق أهدافه ويحتفظ بمزيد من رضا الناس واحترامهم وتقديرهم .

غير أن الفتـى كان ينوى فى قرارة نفسه أن يـعود إلى بلده . أما لو كان اختيـاره غير ذلك ، فأغلب الظن أنه كان سـيستقر فى أمريكا ، وليس بلدا آخر .

ولماذا يرتبط الآن ؟ إنه ليس على استعداد أن يكون أسرة . . يريد أن يـنهى دراسته أولاً . . انـه لازال شابا . . لماذا العـجلة ؟ ولكـــن . . . هل اسـتطـاع الفتـى أن يغلـق قلـبه ؟ أن يؤجـــل عواطفه ؟ هب أنه قابل فتاة أحلامه - كما يقولون ؟ هل سيطلب منها الإنتظار ؟ هل يدعوها أن ترجئ هى الأخرى عواطفها ؟

لقـد تعرف مرة عـلى فتـاة . . . كانت مـتوسطة الجـمال . . وديعة ، تحب الحيـاة ، شديدة التفاؤل ، بسيـطة ، صريحة . . . كانت فـى السنة الأخيـرة من دراستها الجامـعية . . فرحت كـثيرا بحصولهـا على البكالوريوس . . حـصلت على وظيفة فـى مدينة مجاوره بنفس الولاية . . كانت تطـمئن على الفتى ، تحب سماع أخباره . كانـت تود لو تزوجته . . . لمحت لـه مرة . . وصرحت له أخرى . . عز على الفتى أن يصـدمها . . . أخبرها أنه يريد أن

ينتهى من دراسته أولا !! وهل هناك ما يمنع من الدراسة والزواج ! ربما لا . . ولكنها مرحلة يريد أن ينتهى منها . ثم إنه سيعود إلى وطنه بعد ذلك ويستقر فيه . هل يمكنها العيش فى بلد أجنبى ؟ نعم . . أجابت مسرعة ! ولكن الحياة هناك تختلف عنها هنا فى أمريكا . . شرح لها . ولكنى أحب تاريخكم المجيد وآثاركم الخالدة . . . هذا ليس كل ما فى الأمر ! ماذا بعد أن تذهب الفرحة بالآثار ، ويخبو الإعجاب بما صنع الأجداد ؟ سأحصل على وظيفة هناك . . . سأعلم الإنجليزية للمصريين . . . هذا عمل نبيل ! ولكن هل يمكن لإثنين من ثقافتين مختلفتين أن يعيشا معا ، زوجين ، لفترة طويلة لايعلم مداها إلا الله ؟

وهل يمكن للمرأة أن تتكيف مع البيئة الجديدة كما يتكيف الرجل للبيئة الأمريكية ؟ ربما كان الأخير أكثر وأسرع تكيفا . . لعدة أسباب . . إن الحياة هنا رخية ، صحيح أنها ليست سعادة كلها ، ولكن مجالات الرفاهية فيها أكبر . وإن الشخص الذى يسافر إلى أمريكا غالبا ما يذهب لمهمة معينة يريد أن ينجزها فى وقت محدد ، وهو فى الغالب يجد بغيته ويعثر على ضالته - فى العلم والعمل والترفيه ، والحب أيضًا . . . انه مجتمع كبير مفتوح . . بوتقة كبيرة تذوب فيها الأجناس وتتآلف فيها الثقافات وتتعايش فيها المتناقضات . ومع كل ذلك ، فهناك من لايندمجون

أو يتكيفون .. منهم من يستمـر ، ومنهم من ينسحب .. ومنهم من يعيش على الهامش ، أو يقتصر فقط على المهمة التى جاء من أجلها .. إن الناس يختلفون فى درجات تكيفهم وتوافقهم .

ألمت الفتاة للفراق ... دعت للفتى بالتوفيق ، وبادلها الفتى أيضًا أمنياته ... كانت تعتقد صـادقة أنها عثرت على الفتى الذى يلائمـها .. حتى هــو ، كان يـداخله إحســاس بأن هذه الفـتاة تلائمه ... ولكن : ما كل ما يتـمنى المرء يدركه .. تأتى الرياح بما لايشتهى السفن .

☆ ☆ ☆

وقابل الفتى فـتاة مرة أخرى ... جذبته إبتسامتـها الرقيقة ، وحديثها الحلو ، وثقافتها المتنـوعة ، وفكرها العميق . كانت فتاة راقية متحضـرة .. تلمس ذلك فى ملبسها وحديـثها والموضوعات التى تـتناولها . كـان وجهها كالـبدر ، يشع ضـياء ، تزينه عـينان سوداوان عمـيقتان ... حين تـنظر إليهمـا تجد فى نفسـك فرحة وسرورا ، كانت كما قال الشاعر : يزيـدك وجهه حسنا كلما زدته نظرًا .

أنس الفـتى لصحبـتها كثيـرًا ، وفرحـت هــى بلقائه فـرحـا

عارما . . . كانا يتقابلان فى الجامعة ، والمناسبات والأعياد والحفلات . . . يقابلان كثيرا من الأصدقاء . . .

كانت إجتماعية ودودة مرحة ، تحب الحياة والناس .

كانا يتحدثان فى موضوعات شتى . . . أحبت مصر من خلال الفتى . . . سألته عن أشياء كثيرة - طفولته ، حياته ، دراسته . . . كان يحكى لها عن الريف المصرى ، طفولته فى الصعيد ، دراسته فى القاهرة . . . والفتاة تسمع . . . وتحكى له عن نشأتها وأحوالها وأحلامها . . . لم يكن الحديث ينقطع بينهما أبدا . . . كان هناك دائمًا شىء يقولانه لبعضهما . . إن لدى الفتى كلاما كثيرا يريد أن يقوله . . . ولديها كذلك . . . ووجد كلاهما الفرصة ، وتبادلاها . . توثقت صداقتهما . . .

هل يمكن أن يدخل الحب بينهما ؟ لا يا قلب . . اتئد قليلا ، إمش الهوينا فى طريق العواطف ، وهرول فى طريق العلم . . . فهى لاتزال طويلة !! المهمة لاتزال جسيمة . . وكثير من الإمتحانات والتحديات يقبل حثيثا . . . الفتاة تشجعه . . تحيى فيه إخلاصه . . تتبع أخباره . . تتابع تقدمه . . تفرح لنجاحه . . الفتى ممتن جداً . . يشكرها ، يقدرها ، يحترمها . . . ولكن يحبها ؟ لم يخفق القلب بعد !! هل استطاع أن يسيطر عليه -

يحكم حركته إلى هذا الحد ؟ ترى هل سيقدر لهذا القلب أن يخفق بالحب مرة ؟ وهل سيستجيب إذا أمره صاحبه بذلك ؟ لايدرى . .

☆ ☆ ☆

كان الفتى صادقا مع نفسه . . . وكان تفكيره الخصب يحول قصصه الواقعية إلى خيال كبير . . غامض . . ساحر . . ممتع . . مؤلم . . كان يحب أن يهوم فى عالم آخر . . . يوتوبيا ؟ لا . . وإنما كان يحس براحة كبيرة عندما يمسك بالقلم ، ويسطر على الورق خواطره . . وكأنه يودع أسراره ووجدانه فى مكان أمين . كان وهو فى المرحلة الجامعية بالقاهرة يكتم كثيرا من أحاسيسه . . لايقولها لأحد، وإنما يبوح بها للورق . . . أو يسر بها للنيل ، الخصيب الحبيب ، الساحر العميق . . . زفرات حارة كانت تحرقه وهو يعبر عنها . كان الكاتب والأديب ينمو بداخله . . مبكرا . . وهو صبى لما يتجاوز الخامسة عشرة بعد . . . إستمر يكتب ، ويكتب . . . حتى الشعر ، حاول أن يقرضه مرة ولكنه توقف سريعا . . كان أول ما كتب من الشعر :

أريد أن أبلغ الكمال بشعرى . . وما أنا ببالغ إياه . . فإن الكمال كله . . لله جل فى علاه .

عجيب أمر هـذا الفتى . . . كيف لم يخفق قـلبه بالحب . . وهـو إنـسان مرهف الحس رقـيق الشعور ، ومـعظم كتابـاته عن الحب . . كانت له لمسات عميقة . . كـلمات حية ، ربما تعكس ما يختـلج فى صدره من أحاسـيس عارمة ومشـاعر فياضة مفـتوحة للحب . يبدو أنه آثر الإنتظار . . وإن غدا لناظره قريب .

٧

التعليم ...

﴿ وقل رب زدنى علما ﴾

سورة طه ١١٤

☆ ☆ ☆

كن عالما أو متعلما أو سامعا

ولا تكـــن الرابـــع فتهلك

أنفق الفتى سنوات بعثـه إذن فى التعليم ، أراد أن ينهل من العـلم مـا إستـطاع .. ذاب فـى الحياة الجـامعـية ، المثـيرة ، الخصبة ، المتجددة ، المليئة بالتجارب ... درس مواد متعددة فى أقسام وكـليات متنوعـة . فالطالب يـتخصص فى مجـال معين ، يعـتبر الميـدان الرئيـسى الذى يـجول فيه . وإلـى جانب ذلـك له تخصـص فرعى أو مساعد أو مـكمل . وهو يدرس فى الحـقلين مواد كثيـرة - بعضها ملـزم إجبارى ، والآخر اختيـارى يقرره هو وأستاذه المشرف عليه ، أو كما يسمونه الموجه أو الناصح . ثم إنه بالإضافة إلى هذا يدرس أيضًا مواد مخـتلفة فى مجالات تخصص أخرى - ليست بعيدة عن الفرعين الـلذين يتخصص فيهما - وإنما تساعـده على صقـل شخصيتـه العلميـة ، وإثراء فكره ، وتـنويع إهتمـاماته ، وتوسيع أفـقه . فترى الطـالب يأخذ باقة فـريدة من العلـوم ، وكأنه فراشة تحلـق بين الزهور تمتص رحـيقها فتـتكامل أجزاء غذائها .

وقد أحـب الفـتى معـظم المـواد التى درسـها ، ورغـب فى الإستفادة منها . فلا يكفى أن تـكون قادرًا - ذهنيا وبدنيا - على التحصيل ، ولكن يجب أيضًا أن تكون راغبا فيه ، مدفوعا إليه ، حريصـا عليه ... وكانـت هناك مواد لم تعـجب الفتى ولـم تثر

إنتباهــه كثيراً . . . وهــذا أمــر طبيعــى ، فــليس كل العلــم سهلا سائغا . . . بل ربما كان العكس هو الـصحيح . إن للعلم مشقة ، تتطلب عقلا جادا وروحا وثابة إلـيه . حتى إذا لم يكن بك رغبة إليه . . يجب أن تـروض نفسك على ذلك . ألم يـقل الشاعر : لاتحســبن المجد تمرا أنـت آكله ؟! إذن يجـب أن تستـعد لمواجـهة مايعتريك من صعاب ، آلام ، سهر ، وربما دموع أيضًا . . . فلن تبلغ المجد حتى تلعق المرا . . . بلَ إن هذه الصعاب تصبح بالنسبة للـشخص النـاضـج الجـاد نوعا مـن التحدى يـجب أن يواجـهه بشجاعة . . . إمتحانا يجـب أن يجتازه بنجاح . . . نزالا يجب أن يخوضه بمهارة حتى يفوز . . . ألم يقل شاعر آخر :

إن أنت لم تشرب مرارا على القذى فمتـــى وأى الناس تصفــو مشاربـه

إن العــلم كـالحيـاة . . . جزء منـها . . . لاتـصفـو دائمًا ، ولاتتكـدر على طول الخـط . . ليست نـعيما مـقيما ، ولا شـقاء مستمـرا . . . وإنما هـى خليـط مــن هذا وذاك . فيـوم لنا ويوم علينا ، ويوم نساء ويوم نسر . . .

لذلك كان مهما أن يثبت الشخص وجوده ، وأن يؤدى الدور الذى يعيش من أجله ، بجد ومهـارة ، وأن يتسلح لذلك بالتوكل علـى الله وصـــدق النيـة والعـزم على الـفوز ، وبذل المجـهود

الصادق ، المخلص المستمر للنـجاح . . فخير الأعمال ما ديم عليه - كمـا يوصينـا رسول الله ﷺ . لقد عـود الفتـى نفسه عـلى الدراسة والتحصيل - كما علمه أبوه - منذ أن كان صبيا صغيرا ، وعقد العزم علـى أن يستمر فى ذلك حتى يحصـل على شهادته ، وبعد ذلك أيضًا .

يذكـر الفـتى أنه دعـى مرة إلـى حفل (بـارتى) ، وكـان بين الحاضريـن أستاذ كبـير كان الفـتى يحب مـحاضراته . كـان حلو الحديث ، هـادئ الحركة ، عميق الـفكر ، متواضعـا . وبعد أن مكث فى الحفل قليلاً أراد أن يغادر . فسأله الحاضرون أن يبقى ، فلازال الوقـت مبكرا . ولكنـه أجاب بأدب أن لديه محـاضرة فى الصبـاح ، ويريد أن يسـتعد لهـا ، ويذهب للـبيت ليـقرأ . هذا الأستاذ الكبيـر يستعد ! يقرأ ! نعم . . . كلمـا ازداد الإنسان علما ازداد تشـبثا بـه ، وحرصا عـليه ، وشـوقا إليـه ، وإقبالا عـلى تحصيله . ألا يقولون فى الأثر : منهوماـن لايشبعان : طالب علم وطالب مال ؟ فـليحرص الفتى إذن علـى العلم كما يحـرص عليه أساتذته . . . سيقول الفتى ذلك فى المستقبل لتلاميذه ، والطلاب الذين يشرف على رسائلهم العلمية . . . سينصحهم بأن الدكتوراه نهاية مرحلة ولـكنها بداية أخرى ، يصبح الشخـص بعدها مؤهلا لأن يقرأ بوعى ، ويبحث بفكر ناضج مستنير . . .

وهذا أستاذه المشرف على رسالته ، قال له الفتى مرة وهو يحاوره فى جزء من أجزاء الرسالة ، مشيرا إلى أحد المراجع : إن هذا الكتاب صعب !! قالها وهو يشعر بخجل ، كيف يكون الكتاب صعبا وهو على أعتاب الدكتوراه ؟ وفوجئ الفتى برد أستاذه : وأنا أيضًا أجده صعبا ! إذن هناك السهل والشاق . . والإصابة والخطأ . . كما أن هناك من المؤلفين من نجده سهل التعبير متمكنا من ناصية لغته ، وآخرون لايتقنون لغتهم .

يذكر الفتى أحد المؤلفين الذين لابد من قراءة كتبهم فى مرحلة الدراسة العليا . كان الكتاب رفيع القيمة ، راقى المحتوى ، عميق الفكر ، بليغ المعنى . . ولكن وا أسفاه . . كانت لغته صعبة ، معقدة ، تشعر كأنها كانت عسيرة الولادة . لاتكاد تمسك بأول الجملة أو الفقرة ، حتى تفلت منك ولاتعرف نهايتها . . . كأنها ضاعت منك ، أو ضعت منها ، أو ضيعكما الكاتب معا . . تحس وأنت تقرأ الكتاب كأن اللغة لاتطيع صاحبها . . تتمرد عليه .

بينما يذكر الفتى كاتبا آخر ، عالما نفسيا واقتصاديا واجتماعيا ، حين تقرأ أحد كتبه ، فإنك لاتحب أن تترك الكتاب قبل أن تتمه . إنه يستحوذ على إنتباهك ، يخلب لبك ، يخاطب

ليس فقط أفكارك وذكاءك ، بل إنه يداعب مشاعرك ووجدانك . كان المؤلفون على درجات بين هذين الكاتبين . البعض تقرأه وأنت مضطر ، متألم ، تمر على الصفحات وكأنك تتجرع سما ، وتقرأ الكلمات وكأنك تقذف بالحجارة . والبعض الآخر تقرأه وأنت سعيد ، تهيؤ نفسك له ، تستقبله بترحات وشوق . بل إنك تقع فى حيرة من أمرك ، فأنت تريد أن تلتهم الكتاب بسرعة لما فيه من تشويق ومتعة ، ولكنك فى نفس الوقت تريد أن تقرأه على مهل حتى تستمع بكل ما فيه من كلمات ومعان .

إن التعبير السليم - دقة ومعنى وجمالا ، ونقل ما يدور فى ذهن الكاتب إلى فكر القارئ . . . مهارة رفيعة لايتقنها الجميع . إنها تتطلب انتباها ومراسا ، وأهم من ذلك أذنا صاغية ، وقلبا مفتوحا ، وحسا مرهفا ، للغة وأسرارها ومواطن جمالها . . . إن من البيان لسحرا - كما قال أحمد شوقى . . . وكان أبو الفتى يخبره بأن للغة جرسا وإيقاعا يصل ما بين الآذان والعقول والقلوب أيضًا . . . كما يتطلب الأمر من الكاتب رغبة صادقة فى نقل رسالته للقارئ . . وكأنه يكلمه شخصيا . . . يناجيه . . . يصحبه فى رحلة فكرية ممتعة .

يذكر الفتى مدرسين كثيرين - فى مراحل التعليم المختلفة -

كان لهم إلى جانب أبيه - بعد فضل الله - أثر كبير فى تنمية إهتمامه بالمواد التى يدرسها . وذلك لحسن تعبيرهم وجمال إلقائهم ، وطريقة التعليم التى إتبعوها . كما يذكر آخرين - لايغمط حقهم ولايقلل من شأنهم - ولكن كان للغتهم الصعبة وطريقتهم الخاطئة فى التدريس ، أثر كبير أيضًا فى إنصرافه عن مواد معينة . لذلك كان مهما أن يختار المدرسون على أساس دقيق ، وأن يعدوا لذلك إعدادا سليما ، وأن يهيؤا للتدريس ذهنيا ونفسيا ، وأن يدربوا على الطرق الناجحة للتعليم . ويصبح الأمر فى غاية الأهمية عندما نتكلم عن المراحل التعليمية الأولى ، لما لها من شأن عظيم وأثر كبير على تقدم الطفل فى المراحل التالية ، وعلى كثير من شئون حياته ومعاملاته .

دعت الفتى مرة إحدى زميلاته - وكانت تعمل مدرسة ابتدائية - ليتحدث للأطفال فى فصلها عن مصر . ولبى الفتى الدعوة مسرورا . . . وذهب إلى هذه المدرسة الإبتدائية الأمريكية . . . سنوات طويلة لم ير خلالها هذه المدارس ، ربما منذ أن كان هو طفلا صغيرا . دخل الفصل . . . وجد وجوها نضرة ، وشفاها باسمة ، وعيونا جميلة تنظر إلى الفتى بشوق وكأنها تبحث عن مصر فيه . . عن التاريخ الرائع الذى قرأوه أو سمعوا عنه - فى عيون هذا الفتى .

كان الفصل أشبه بحلقة صغيره التف فيها الأطفال . وكأنهم باقة رائعة من الزهور . وكانت المدرسة تجلس وسط هذه الحلقة كأنها الوردة الكبيرة تنشر عبيرها على بقية الأزهار . كان الحديث عبارة عن حوار بين الفتى والأطفال ، أدارته المدرسة بحكمة وأدب وابتسامة لم تفارق وجهها المتألق . كان الأطفال يسألون والمرح ينتشر بينهم ، والسعادة تملأ قلوبهم ، وحب الاستطلاع يرتسم على وجوههم ، والدهشة البريئة تجلل أساريرهم ، والفرحة تطل من عيونهم . . . والفتى يجيب جذلان ، سعيدا ، فخورا . . . والمدرسة تنظم أدوار الأطفال ، تعلق ، تضيف إلى السؤال أو الجواب ، توجه مسار المناقشة بين تلاميذها . . . كانت جلسة رائعة . . بسيطة . . استمتع الفتى بكل لحظة فيها . ما أجمل أن تتحدث إلى الصغار ، تصل إلى هذه القلوب الصغيرة والعقول اليانعة . . . تراها وهى تتفتح للعلم ، للنور ، للحضارة .

أعجب الفتى بالطريقة التى يعلمون بها الأطفال فى المدارس الأولى . إنهم يهتمون ببناء الإنسان ، إدخاله للمجتمع ، إدماجه مع الآخرين . . . يوجهون إهتمامهم ليس فقط لحشر المعلومات فى أدمغة الأطفال ، ولكن أيضًا للأنشطة الثقافية

والإجتماعيـة . . . فهذا زائر يتحدث عن بـلد أو شعب أو عادات معينة . . . وهذا محاضر يتكلم عـن ظاهرة أو مشكلة بعينها . . . وهذه رحلة يسنـدون أمر تنظيمها لواحد أو إثـنين من الأطفال فى الفـصل يساعـدان المدرسـة فى هذه المـهمة ، فيـقترحان مـوقع الرحلة ، والأنشطة الترفيهيـة التى يمكن أن تؤديها المجموعة . . . إلى غير ذلك من الأنشطة والمهام التى يعدون فيها الأطفال لتحمل المسئولية والقيام بأدوارهم كما يجب .

فى المواسم والأعياد مثلا . . يخبرون الأطفال أن هناك اخوة لهم ، أطفالا آخرين فقراء ، لاتمكـنهم مواردهم المادية أن يشتروا لعبا فى العيد . . فليحضـروا إذن لعبهم القديمة إلى المدرسة . . . ويقوموا بـتنظيفهـا وإصلاحها ودهنهـا بأصباغ جديدة ، وتـقديمها لزملائـهم الفقراء . ألا يـنصحنـا رسول الله ﷺ بهذا التـكافل والتراحـم : من كان عنده فضـل زاد فليتصدق به على من لا زاد له . . . كما أن فى هذا السلوك تعويدا للأطفال على الإقتصاد . . عدم الإسراف . . عدم إلقاء الحاجيات القـديمة ، فهناك من يحتاج إليها ويـفيد منها ، فالإقـتصاد نصف العيـش - كما يعلمنـا النبى الكريم ﷺ ، وهـم يفعلون ذلك مـع الكبار أيضًا . إذ تتـلقى مؤسـسة جيش الخـلاص - والتى أنـشأت فى إنجـلترا فى الـقرن التاسـع عشر - كل مـا يفيض عــن حاجات الناس مـن ملابس

ومتاع ، ويوزعونه على ذوى الحاجة والفقراء . إن الإحساس بآلام الآخرين شىء جميل ، ومساعدتهم على تحمل مشاق الحياة عمل نبيل . . . فتسرى بين أفراد المجتمع روح الود والتراحم ، والشعور بالوحدة والأمان . انظر كيف ضرب رسول الله ﷺ مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم ، كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

وهناك تكليفات أخرى يسندونها للأطفال فى المدرسة . . . رسم صور ، صناعة أشكال وزخارف . . بناء نماذج . . . خياطة فرش وملابس . . . وقد تكون هذه التكليفات فردية أو جماعية . إنهم ينمون فى الأطفال ملكة الإبداع ومهارة الإبتكار ، ويخاطبون فيهم دوافع احترام النفس ، واعتراف الآخرين ، وإثبات الذات . . فيعلقون إنتاجهم من صور وزخارف على حوائط الفصول وجدران المدرسة . . ويعرضون منتجاتهم من نماذج وأشكال ليراها الناس . . . تفعل مدارسنا ذلك أيضًا . . ويذكر الفتى أن المدارس التى تتلمذ فيها قبل الجامعة فى الصعيد ، كانت تفعل ذلك أيضًا . . فكانت تقيم معارض دورية - جميع منتجاتها من صنع التلاميذ أنفسهم . إن العمل المشترك يزيد الإنتاج ، ويثير الهمم ، ويعمق التفاهم بين الناس ، ويرفع درجة التعاون والاستعداد والرغبة لبلوغ الهدف . وهو أيضًا يثير

المنافسة ، ويشحذ أفكار المشاركين ، ويدفعهم لتقديم أحسن ما يمكنهم من عطاء . إن النواتج الجماعية ليست حاصل جمع جهود الأفراد ، وإنما حاصل ضرب مضاعف لهذه المجهودات - لذلك لايستهن أحد بما يقدمه من جهد ولو كان صغيرا . . فقد يكون له - فى المحصلة النهائية - أثر كبير .

كما أن اللعب والرياضة يأخذان حظهما الوافر أيضًا فى حياة التلاميذ الصغار فى مراحلهم الدراسية الأولى . فالعقل السليم فى الجسم السليم ، وصحة الأبدان تنعكس على صحة العقول . ولايعتقد الناس أن اللعب أو الترفيه ضياع لوقت الأطفال - كما قد يظن بعض الآباء أو المدرسين . . فترى هؤلاء فى مرحلة الحضانة يكلفون الطفل الغرير بكتابة هذا الدرس أو ذاك ثلاث مرات أو خمس ، وربما فرح الآباء لذلك فالولد يتعلم منذ الصغر . !!. فعلى العكس من ذلك . إن اللعب يفيد عقل الطفل كما يفيد جسمه . . إنه تعبير عن النفس ، تفجير للطاقات الذهنية والبدنية معا ، إطلاق للكوامن الموجودة لديه . . . إن اللعب - فى المراحل الأولى من حياة الطفل - جزء من العملية التعليمية ، مكمل له - لذلك كانت الألعاب التعليمية ، والتى يستخدم فيها الكمبيوتر الآن - إختراعا هائلا لتنمية عقول الأطفال وإشباع دوافعهم للعب فى نفس الوقت .

وكم يرتكب بعض المدرسين من خطأ فادح ، حين يربطون فى أذهان الأطفال بين العلم والعقاب . ذلك بأنهم إذا أرادوا عقاب طفل حرموه من « الفسحة » وكلفوه أن يجلس إلى درجه يكتب هذا الدرس أو ذلك خمس مرات أو عشرا ... وبذلك يثبت فى ذهن الطفل أن العلم عقاب ، تعذيب ... وهل يستطيع أن يركز تفكيره فيما يكتب ؟ هل يستفيد من هذا الواجب ، وهو يرى رفاقه يلعبون ويمرحون ، ينطلقون فى فناء المدرسة لايلوون على شىء ، مستمتعين بكل دقيقة يقضونها !!

إن المدرسة الأولى مكملة للبيت ، تساعد على التنشئة السليمة للأطفال . كما أن العلاقة بين المدرس وتلاميذه فى هذه المرحلة ليست علاقة تعليم وتأديب ، وإنما هى علاقة توجيه وإرشاد ، صداقة ، وتبادل للإحترام قبل المعلومات ، وإحتكاك للعقول ، وإتصال بين الشخصيات ... إن المدرس أب ، وصديق ، ومعلم ، ومرشد ، وناصح أمين . ينقل إلى الأبوين شعوره تجاه الطفل ، ويرشدهما إلى نقاط القوةوالضعف فيه . وينبههما لأى خطر يحدق بالطفل ، مثل عادات سيئة أو إنخفاض فى الأداء ، أو إنصراف عن الدرس ، أو انطواء أو عزلة عن الآخرين ...

إن العلاقة بين المدرسة والبيت قوية مستمرة . يباشر الآباء فيها أبناءهم ويتابعون مع المدرسين تقدمهم . كما أن هناك يوما أو أسبوعا ، يسمى أسبوع الآباء . . . يسمح فيه للآباء بزيارة المدرسة أثناء اليوم الدارسى، ودخول قاعات الدرس مع أبنائهم والاستماع معهم للمدرسين . وهم بذلك يشهدون تعليم الطفل وتربيته . . يرون المدرس والتلميذ . . ربما كانت لهم ملاحظات على هذا أو ذلك ، أو على التلاميذ الآخرين ، أو موضوع الدرس ، أو القاعة التى يجلسون فيها والظروف المادية المحيطة بها من إضاءة وتهوية وتصميم ، أو عدد التلاميذ بالقاعة الواحدة . . .

هل من الصعب أن نفعل ذلك فى مدارسنا ؟ لا . . بل إن الواجب يحتم علينا ذلك ، أليست هناك مجالس للآباء ؟ لماذا لاتكون هذه المجالس أكثر نشاطا ؟ أليست هناك لقاءات دورية يعقدها مديرو المدارس مع الآباء ؟ لماذا لايشترك أساتذة الجامعة - فى كليات التربية - ببحوثهم عن المدارس وما يوجد فيها من مشكلات ؟ وتصبح الحاجة لذلك ماسة ، فى مدارس القرى - حيث توجد مشكلات كثيرة ، صحية وإجتماعية ومادية . . .

وإذا كانت نسبة الأمية لدينا كبيرة ، فإن آثارها أكبر ، وأكثر هولا . وقد كان الفتى يرى مظاهر الأمية الكثيرة منذ أن كان

صبيا ... من اعراض البعض عن التعليم ، وتساقط أعداد كبيرة في المراحل الأولى ، وإهمال الآباء في متابعة أولادهم ، وإرتفاع الإتجاه للجريمة ... كان الفتى يرى أطفال قريته - كما يحدث في قرى أخرى كثيرة على طول خريطة مصر وعرضها - يسبحون في الترع والبرك ، حيث المياه قذرة ، والأمراض كثيرة .. كالبلهارسيا مثلا ، والتى تقتل عددا لا بأس به من الصغار والكبار على السواء ... كما أن بعض النساء كن يتركن أطفالهن في صورة قذرة ، وهيئة زرية وملابس متسخة .. نتيجة إهمال أو إنشغال أو عدم وعى ، أو حتى منعا للحسد أحيانا ... فكنت ترى الطفل تتعلق بشعره أو على صدره خرزة زرقاء .. ويعلو وجهه الذباب ، ويطمس عينيه طين أو تراب ، ويسيل من أنفه مخاط ومن فمه لعاب ، ويختلط كل ذلك ... فكأنك ترى لوحة رائعة ساحت عليها ألوان الرسام ، لتعبر عن مدى القبح الذى يريد الناس إظهاره للآخرين . ثم تشكو النساء بعد ذلك من رمد في عيون أطفالهن ، أو سعال في صدورهم ، أو آلام في بطونهم !! حتى بعض الأسماء ، كانت تعكس الخوف من الحسد ، وإفتقار الذوق ... كالحنش ، والغلبان ، وبعرة ، والمنسى ، والعفش ! ... انظر كيف كان النبى ﷺ يكره الأسماء الخشنة الغليظة كحرب ، وصعب وغيرها ... وكان يحولها إلى أسماء سهلة بسيطة يقبلها الذوق السليم .

قطعا لو ذهب هؤلاء الأطفال إلى المدارس لنظفت أجسامهم ، وحسنت هيئتهم ، ونقلوا لأمهاتهم هذا الوعى . . . أين جهود الجمعيات والمؤسسات التى تعمل فى الريف ؟ لماذا لا تتحسن حال الأمهات هناك ، حتى يعتنين بأطفالهن وينشئنهم نشأة سليمة . . فالأم - كما قال حافظ إبراهيم - مدرسة إذا أعددتها . . أعددت شعبا طيب الأعراق . . إن الأطفال هم الأمل ، فلماذا لانقوى آمالنا ؟! هم المستقبل ، فلماذا لانحرص على أن يكون المستقبل زاهرا ، صحيا ، منتجا ، سعيدا باذن الله .

☆ ☆ ☆

ويسير التعليم بعد المرحلة الأولى بنفس المفهوم والفلسفة ، وعلى ذات القواعد والأسس - بناء الإنسان ، وتربيته ، وغرس روح العلم فيه ، وتعويده على الأنشطة الجماعية ، ودمجه مع الآخرين ، وإعداده ليكون مواطنا صالحا ، مساهما بعلمه وفكره وجهده فى بناء مجتمعه . . . ويهتم القائمون على شئون التعليم - ليس فقط بالتلقين ، ولكن بالتفكير والبحث ، القراءة والإطلاع ، الإلمام بوجهات نظر متنوعة . . . لذلك فهم يعلمون التلاميذ فى مراحل مبكرة حسن التفكير والبحث عن المعلومات

ودقة قراءتها وتحليلها وتفسير معانيها . فيعلمونهم خطوات التفكير المنطقى التى وضعها مبكرا الفيلسوف الأمريكى جون ديوى .. بدءاً بتعريف المشكلة وتحديدها ، إلى جمع المعلومات وتحليلها ، ووضع الفروض وإختبارها ، وحتى التفكير فى البدائل الملائمة للحل ، وإختيار أنسب هذه البدائل . وذلك حتى يعتاد الفرد على مواجهة المشكلات ، ويتسلح بالأسلوب الفكرى الملائم لعلاجها ، وحتى يتعايش مع القضايا الفكرية العديدة - البسيطة والمعقدة - التى سيصادفها فى مجالات العلوم المختلفة التى يدرسها ويتخصص فيها بعد ذلك .

ويستمر الطلاب على هذا النحو ، التفكير ، والبحث ، والقراءة ، والإطلاع ، وكتابة الأوراق ... حتى يبلغوا الجامعة ... القلعة الحصينة للعلم ، المعقل الكبير للبحث العلمى ... فيتخصص الطالب فى حقله الأساسى ، والفرعى ، ويدرس ما شاء الله له أن يدرس ، ويبحث ما وسعه جهده وتفكيره أن يبحث .

وللرياضة واللعب نصيب أيضًا فى الجامعة .. فهناك مساحات شاسعة للملاعب ، يمارس فيها الطلاب شتى أنواع الرياضة - هواية ودراسة وإحترافا . بل إن بعض الفرق الرياضية

المتنافسة على مستوى المدينة أو الولاية تكون من جامعات بعينها - فى كرة القدم (والتى يلعبها الأمريكان بأيديهم !!) وكرة السلة والبيسبول . . . هذا إلى جانب رياضات أخرى ليس لها نصيب من الشهرة مثلما لهذه الألعاب . . كالتنس ، والهوكى ، والجولف ، والتزحلق على الجليد ، وركوب الخيل . . .

آه الخيل . . . إن لها أثرا كبيرا فى حياة الفتى . . . وبصمة واضحة فى فكره وخياله . . . كان يعجب دائما بالخيول . . . ويرى فيها جمالا ، وخيلاء ، وكبرياء . الخيل معقود فى نواصيها الخير . وكان يعجب أيضًا بالفرسان الذين يمتطونها . . . كان يرى كثيرًا من الخيول فى قريته الصغيرة ، وفى المدينة التى نشأ فيها . . وكان يشاهد رجال الشرطة يمتطون جيادهم ، فيخاف منهم . . . لماذا يخاف الأطفال من الشرطة ؟ هل بسبب المظهر الرسمى الذى يبدون فيه ! هل بسبب السلاح الذى يمسكونه ! هل لأن بعض النساء - عن جهل أو دون قصد - يخوفون الأطفال بالشرطى عندما يطلبون منهم إتباع سلوك معين أو الإقلاع عن سلوك آخر ! أم لكل ذلك ! بعض النساء لازلن حتى الآن يخوفن أطفالهن بالعسكرى أو الطبيب !!

وكان أيضًا يرى الفلاحين يمتطون جيادهم . . وكانوا يزينون

هذه الجياد بأسراج ملونة . . وأشرطة زاهية . . وكانوا يرقصون بها - فى المناسبات والاحتفالات كالأعراس والطهور والعودة من الحج - على دقات الطبول . . . كان الفتى يتابع بدهشة وإعجاب أقدام الخيل ، وهى تخطو خطوات منتظمة راقصة - لاتكاد تخطئ . . إن لها آذانا موسيقية . . تطرب لدقات الطبول . . وتنسجم مع الموسيقى التى يصدح بها جنود الشرطة - فى الأعياد والمناسبات الوطنية - بأدواتهم النحاسية القديمة . . يضربونها ببعضها فتصدر أصواتا عالية تصم الآذان أحيانا . . . ولكن الخيول تعرفها جيداً وتطرب لعزفها وتأنس لها وترقص عليها .

كان الفتى يتمنى أن يركب أحد هذه الجياد العربية الأصيلة . . . ولكنه كان يخاف من ذلك خوفا شديدا . . . فربما وقع من فوق الحصان ، أو رماه هذا على الأرض . . . كان مجرد التفكير فى هذا يرعبه . . . فينظر إلى الخيول . . ويرى عيونها الواسعة تنظر إليه ، فيشوبه إحساس هو مزيج من الخوف ، ومن الأمل البعيد أيضًا . . . كأن هذه العيون تدعوه للفروسية . . ولكن نظرة سريعة لظهر الحصان وحوافره تبدد هذا الأمل سريعا . . .

كما كان الفتى يعجب بالخيول التى تجر عربات الركوب . . .

كانت دقات أقدامها على الأرض تعطيه شعورا بالسعادة والفرح ... حتى الأغانى التى كانت تستخدم إيقاع الخيول فى نغماتها ، كان الفتى يطرب لها طربا شديداً ...

لقد سمع الفتى قصصا كثيرة عن الخيول وهو صبى صغير ... الشاطر حسن الذى يركب فرسه الأبيض ، ويشهر سيفه ، ويختطف حبيبته ... يذكر مرة أن كان يجلس مع جدته التى كانت تحبه كثيرًا وتحنو عليه - فى بيت جده الريفى الكبير .. وكانت إحدى النساء الكبيرات تجلس مع جدته فى البهو الواسع .. قالت لها الجدة : إدعى لهذا الولد .. فقالت العجوز : يارب يا ولدى ، تقعد على الكرسى وتركب الفرس ... لم يفهم الصبى دعوتها ... سأل أحد أقاربه . فقال له : إن الكرسى رمز للمنصب ، العظمة ، الأبهة .. ألم يكن الفلاحون يجلسون على الأرض ؟ أما العمدة ، والمأمور ، والمدرس ، والضابط ... فكانوا يجلسون على الكراسى .. على الدكة الخشبية التى يفرشون عليها سجادا - متواضعا أو ثمينا - غالبا من الصناعة اليدوية للنساء اللائى كن ينتجن كل شىء فى البيوت . فكان البيت بمثابة مصنع صغير ، تقوده المهندسات - الأمهات والجدات ، يشغلن فيه بناتهن وحفيداتهن .. ويصنعن

فيه كل شيء . . الخبز والزبد والجبن والفرش والسجاد . . .

أما الفرس فكان رمزا للبطولة ، الشجاعة ، الفروسية والإقدام . فكانت دعوة المرأة العجوز إذن أن يفوز الصبى بمنصب كبير ، ويمتطى حصانا أصيلا يحقق به أحلامه ، ويقتحم به ميدانه ، ويحقق به الإنتصارات التى يطمع فيها .

وكان الفتى يسمع عن الفرس المباركة التى كان يقتنيها أحد أخواله . قالوا عنها : إن ذيلها الطويل يصبح فى الصباح الباكر مضفرا . . . وكأن يدا ماهرة حاذقة ضفرته بعناية أثناء الليل . لم يره الفتى مضفرا أبدا ، ولكن كان يطلق لخياله العنان . . . ويسرح بعينيه فى ذلك الذيل الناعم المسترسل الجميل.

كان الفتى يسمع - عندما كان صغيرا - حكايات كثيرة ، لايدرى الآن إن كانت من نسج خيال الناس !! أم أنها كانت حقائق ويرونها ويلمسونها !! أم أنها كانت تعبيرا عن آمالهم وآلامهم . . كتلك الحكاية عن النور الذى كان ينبثق من بيت أو بيتين من البيوت القديمة فى تلك القرية . ما مصدر هذا النور ؟ أهو تلك المرأة الصالحة التى كانت تعيش ناسكة زاهدة ! أم أنه أرواح الناس الذين يحكون أنهم لقوا حتفهم فى هذه الأماكن ! لقد خيل للصبى مرة وهو يمشى مع خاله فى ظلام الليل عائدين

من الحقل - من شـدة ما سمع هذه الحكاية ، وقوة اقـتناع الناس بها - أنه رأى فعلا بصيصا من نور !

لقد عملت هـذه الحكايات - على ما فيها مـن سذاجة صادقة أو صدق ساذج - على تكوين فكر الـفتى . . . لقد ساهمت هذه الأقاصيص فـى إثراء خياله . . فكان يفـكر فيما يسمـع ، ويطلق لخياله العـنان ، ويكمل الحكايات التـى يسمعها ، ويضيـف عليها ويحــذف منها ويـضع لها نهـايات . . لقد رسم لـنفسه عـالما من صنعه ، يحوم فيه ، ويدور حوله .

كما أن هذه الحكايات فى نفس الوقت قد أعطته الفرصة لكى يتـأمل فيمـا حوله ، ومن حـوله . . يدرس النـاس والأحداث ، بعناية . . . يتسائل . . . يبـحث عن حلول وإجابات . . . أليست هذه هى أولـى خطوات البـحث العلـمى . . السؤال ، الحـيرة ، المقارنة ، شرح الظـواهر المحيطة بنا ، دراسة التفسـيرات المختلفة لها . . .

٨

الحصاد ...

﴿ أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾

سورة الواقعة ٦٤

☆ ☆ ☆

أتم الفتى مهمته التى سافر من أجلها . . وحاول أن يتقنها ما أمكنه ذلك . لقد شعر يوم حصل على شهادة الدكتوراه بسعادة غامرة . قال له مساعد عميد الكلية فى ذلك اليوم وهو ينظر إليه بإعجاب : ها أنت قد حققت هدفك ! وكان هذا المساعد هو أول شخص قابله فى الجامعة منذ سنين ، حين بدأ دراسته العليا الأمريكية على تخوف واستحياء . ما أحلى النجاح ! وما أجمل فرحته ! وما أسعد الإنسان حين يحقق هدفه ويصل - بحول الله - إلى غايته .

التقط الفتى أنفاسه ، كأنه كان يجرى طوال السنين التى سبقت حصوله على الشهادة الكبيرة - الدكتوراه - آخر الشهادات العلمية . وشعر كأن حملا ثقيلا قد ألقى عن كاهله . .

يتأمل الفتى فيما كان خلال هذه السنين . . . إنه حصاد مشرف . لقد حصل بفضل الله على علم وفير ، ونضجت شخصيته إلى جانب ذلك . كان كل يوم يمر عليه فى بعثته هذه ، يحمل له تجربة جديدة . . . قابل أناسا كثيرين . . شهد أحداثا جمة . . نظر إلى الأشياء من حوله بعمق ، حاول أن يحصل دروسا كثيرة . . كل شىء حوله كان له معنى عنده .

كانت تعجبه دقة المواعيد . . وكان يرى ساعات الحائط معلقة

فى كل مـكان فى الجامعـة - فى قاعات الدرس ، فـى الممرات ، فى الكافـتيريا . وكانت مواعـيد الدروس تحدد بالدقـائق . فترى محاضرة تبدأ فـى الثامنة وخمس دقائق مثلا ، وأخـرى تنتهى فى الحادية عشرة إلا عـشر دقائق . وكان الجميع - أسـاتذة وطلابا - يلتـزمون بهذه المواعـيد . يذكر الفـتى أن أحد الأساتذة لـم يجئ للمحاضرة فـى موعده . . فانتظره الطلاب نحـو سبع دقائق ، ثم إنصرفـوا . فلما كانـت المحاضرة التالـية إعتذر عن عـدم حضوره لظروف مـعينة ، وطلـب من تلاميـذه عدم انتظاره إذا تـأخر مرة أخرى - أكثر من عـشر دقائق. كانت هذه هى المرة الـوحيدة التى تخلف فيها أستاذ عن محاضرته طوال سنوات الدراسة التى أنفقها الفتى فى بعثته .

إن الحفـاظ على المـواعيد صـفة مـن صفات الحـضارة . ألا يوصيـنا الله تعالى بـذلك فى كل شأن من شـئون حياتنـا . فترى جميع المناسـك موقوتة بمواعيد محددة . « إن الصـلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » (تمرين يـومى مستمر) . « ثم أتموا الصيام إلـى الليل » (شهـر سـنويا ، ولـلمتطوعين أكثر مـــن ذلك) . « وآتوا حقـه يــوم حصاده » (تمـرين سـنوى دورى للزكـاة) . « يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج » . « وأتموا

الحج والعمرة لله » (تمرين واحد فى العمر ، أو أكثر من ذلك للمتطوعين). إنه أسلوب راق للحياة ، يجعل لها معنى ، ويعود الناس على النظام ، العمل ، الإنتاج . . .

كان والد الفتى يعطى أهمية كبيرة للوقت والمواعيد . كان يوقظه مبكرا ، ويذكر له الحديث الشريف : «البركة فى البكور» ، ويدفعه للذهاب إلى مدرسته فى الموعد المحدد . وينتظره عند عودته ، ويجعله يأخذ قسطا من الراحة والغذاء . ثم يدفعه إلى مراجعة دروسه . ثم يجعله ينام مبكرا أيضًا .

وكانت هذه عادة والده أيضًا . . . ينطلق إلى عمله مبكرا ، يعود إلى بيته فى موعده ، ينام فى أول الليل ، ويصحو مع الفجر ، يذهب إلى مقابلاته وإجتماعاته فى الوقت المحدد أو قبله بقليل ، يقصد محطة السفر قبل موعد قيام القطار بوقت كاف . وكان يذكر لإبنه المثل الشعبى الذى يوصى بانتظار مالا ينتظرك (اللى مايستنكش استناه) . ولم يكن يطيق التأخير أو يصبر على التقاعس عن الحركة . . ويضايقه كثيرًا أن يقعد أبناؤه عن السعى . . كان شعلة نشاط تتحرك على الأرض . . طاقة هائلة لاتحركه هو فقط ، ولكن تدفع من حوله أيضًا إلى الحركة والجد ومحاولة الفوز فى سباق الحياة .

ورغم أن أحد أمثالنا الشعبية يقول : « ساعة البدرية منسية »، أى أنك تحصل فى الساعة المبكرة على ما لاتحصل عليه فيما بعدها ، وأنك تنهى واجباتك أو ما عليك من إلتزامات قبل الآخرين . . . إلا أن هناك مظاهر كثيرة لعدم التزام الناس بمواعيدهم ، سواء فى العمل أو العلاقات . . حتى الأطباء لايلتزم كثير منهم بالمواعيد التى يكتبونها على عياداتهم أو مستشفياتهم ، رغم ما لذلك من أهمية وخطورة ، فالذين ينتظرونهم مرضى . . والمريض يتطلع إلى الطبيب كما يشتاق الظمآن فى الفلاة إلى الماء .

ربما كانت هناك عوامل كثيرة - بيئية واجتماعية إلى جانب وعى الناس وفهمهم لقيمة الوقت وتقديرهم له - تجعل الناس لايحافظون على مواعيدهم . كبعد المكان ، وإزدحام الطرق ، وكثرة مضيعات الوقت ، وانتشار الفيديو ، وكثافة البث التليفزيونى طوال النهار والليل . . . ولكن تظل قيمة الوقت غالية ، هامة . . . وإلا كيف تحافظ الأمم على تقدمها . . كيف تدفع عجلة إنتاجها إلى الأمام . . . كيف تفوز فى السباق المحموم فى السوق العالمى . . قالت العرب قديما : الوقت من ذهب ، والوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك . . . إن الأمم المتقدمة

تعمل بهـذا القول . . وتترجم الوقت إلـى ذهب فعلا : فرص ، استثمار ، أرباح . . . تنـظر إلى قيمته المستقبلة ومـا ستحصله من نتائج فى الغد إذا عملت اليوم . . .

علـى أن هـذا لايعـنى أن الإنسان يـجب أن يـعمل طـــول الوقت . . . فلابد له أن يستريح ، يلـتقط أنفاسه . فإن المنبت - كما يعلمنا رسول الله ﷺ - لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى . . . يجـب اذن أن يتمهـل ، يتوقف بـعض الشـىء ، يمشى بســرعة منتظمة ، يغير المكان الذى يوجـد فيه ، يتريض قليلاً ، المهم هنا أن يفرق الإنسان بين وقت الجد واللعب . فيعطى الأول حقه تمامًا حتى يسـتمتع بالآخر . . . يكـد ويعرق ويؤدى واجبه مـخلصا ، حتى يشعر بحلاوة الراحة والترفيه .

وفى الولايات المتحدة الأمريكية تجـد المجال خصبا رحيبا لكل من الجد واللعب . وكان الفتى يحرص على أن يأخذ نصيبه الوافر من الجد . كما كان يأخذ قسطـه من الراحة واللعب - وإن كانت طبيـعة الدراسة فى فتـرة البعثة المحـدودة بزمن معين ، والمنـافسة الشديـدة مع الآخرين ، وازدحام المنـاهج - وخاصة فى مـرحلة الدكتوراه - بالقراءات والبحوث والإختبارات ، كل ذلك لـم يمكنه من الإستمتاع بـنصيب الترفيه . كان هناك مثـلا ولايات كثيرة يود

زيارتها . . . وأماكن ومعالم سياحية كثيرة كان يتوق لرؤيتها ، ولكنه لم يتمكن من ذلك . . . (سيتيح الله له زيارة هذه الأماكن بعد سنين ، حين يذهب إلى أمريكا مرة أخرى ، أستاذا زائرا) .

كان الفتى يقضى عطلة الأسبوع فى الراحة . . أو السفر إلى مدينة أو قرية أو شاطئ مجاور . . . مرة ذهب ليقضى عطلة الأسبوع فى أحد المنتجعات التى أقاموها فى الغابات . . . حاولت الشركة أن تجعل هذا المنتجع بدائيا بقدر الإمكان . . . ليس فيه من صور المدنية غير الكهرباء . . تشعر وأنت تتجول فيه بالطبيعة البسيطة ، الأشجار العالية ، الخضرة الكثيفة ، الهواء النقى . . . أنت تخلع رداء المدينة هناك ، وتعود إلى نفسك ، أصلك . . . بسيطا هادئا مستقر البال طيب الخاطر . . . لامواعيد ، لا إزعاج ، لا ازدحام فى حركة المرور . . .

هذه مزية الإجازة التى تقضيها فى شاطئ أو قرية أو مكان بعيد . . . تعطيك فرصة للإسترخاء والراحة . . كأن تسند رأسك إلى وسادة ناعمة ، تحتويك ، تدلكك ، تدغدغ أحاسيسك . . فإذا أخذت قسطك من الراحة إلتقطت أنفاسك مرة أخرى ، وإستجمعت قواك ، وإستعددت للإنطلاق . . الجسم الآن مستعد للعمل ، والعقل جاهز للتفكير . . . العجلة تلف مرة أخرى ، المحرك يدور بسرعة أعلى وكفاءة أكبر . . .

وكان الفتى يدعى إلى حفلات - فى مناسبات رسمية وإجتماعية - وكان يسمر مع الناس ويقضى وقتا ممتعا . كون صداقات عديدة مع كثير من الناس - داخل الجامعة وخارجها . كان يشاهد حلبات الرقص ويتأمل الناس وهم يرقصون ، بهدوء مرة وبعنف مرة أخرى ، ببطء تارة وبسرعة تارة أخرى . . . وبمرور الزمن اشتد إيقاع الموسيقى وعلا صياحها . وخاصة فى أماكن الترفيه العامة . . تستخدم فى ذلك الآلات الحديثة ومكبرات الصوت إلى درجة تصيب الإنسان بالصمم . . . كان ينظر إلى وجوه الراقصين وأجسامهم ، فيخيل إليه أنهم فقدوا الإحساس بالزمان والمكان . . . أو كأنهم نسوا أنفسهم وما حولهم ، فلا شيء يؤدونه إلا هذه الرقصة . . هذه الحركات العنيفة التى تهز الأجسام والعقول . . ربما يريدون أن يخرجوا من جلودهم ، يذيبوا أحزانهم ، ينفضوا همومهم .

ألا يذكره هذا بحفلات الزار فى الصعيد البعيد !! كان يسمع وهو صبى صغير أن فلانة « عليها زار » !! لم يكن يفهم ما تعنيه هذه العبارة . . . يريد الأهل أن يخلصوها من هذا الزار . تجتمع النساء . . . يعلو لغطهن . . تدق الدفوف . . تتمايل الأجسام ببطء ، ثم يسرع إيقاع الطبول ، فتهتز معه الأجسام بسرعة . .

تكتمل الحلقة ، تتسع ، تشتد همة النساء فى الرقص . . المجنون . . العنيف . . تكاد الأرض تخترق من دق الأقدام عليها . . . يصاحب الطبول همهمات النساء ، وأحيانا صراخهن . . . تستمر الرقصة . . يدوخ البعض ، تميد الأرض بهم . . . ثم تنتهى الرقصة ، بعد ساعة أو يزيد . . . فيسكن الجميع . . . وترتمى الأجسام على الأرض . . . والأطفال ينظرون حولهم فاغرى أفواههم لاتتحول عيونهم عما يحدث . . بعضهم مأخوذ ، والآخر خائف ، والبعض مستمتع . . . وشىء غامض فى هذا الحشد يثير العجب . . . هل هو المعتقدات الخاطئة عند الناس . . هل هو الفراغ . . . الضياع . . . الخوف من المجهول . . . هل هو الدجل الذى يستخدمه محترفون متخصصون مع السذج والبسطاء من الناس !!!

مكتبة سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET
https://twitter.com/SourAlAzbakya

☆ ☆ ☆

ولايذكر الفتى حلبات الرقص ، وحلقات الموسيقى التى تعقد فى الفضاء الواسع والتى يفد عليها الشباب - طلاب الجامعة والمراحل التى تسبقها أيضًا - من كل حدب وصوب ، يجلسون ساعات يرقصون ويغنون وينصتون للموسيقى الصاخبة ، وربما يبيتون أيضًا ليلتهم على أنغام هذه الموسيقى حتى يطلع

الصبـح . . . إلا ويذكر معهـا « الهيبـيز » . وهى ظاهرة شـهدها بالكامل ، من وقت بدايتها وحتـى إنحسارها . وكلمة « الهيبى » تجئ من فـعل له عدة معـان ، فهو دلالة عـلى الفرح والبـهجة ، وهو يعنى أيضًا أن الشخص يدرك ويـتعاطف ويحب ويشارك من يشبهونه - فى العمر أو الجنس أو الميول والإتجاهات .

والهيـبيز طائـفة من الشـباب لم تعـجبهم الحـياة العصـرية ، فقـرروا الإنسـحاب مـن المجـتمـع ، وعـدم الإلتـزام بقـيوده وقواعـده . . وخاصـة فى اللباس والمظهر والعادات المـعيشية . . أطلق هؤلاء الشباب شعورهم ولحـاهم ، وعاشوا عيشة أقرب إلى البدائية . فكنت ترى عددا منـهم يهاجرون إلى الخلاء ، يسكنون فى بيت قديم أو مخزن مهجـور أو شونة تابعة لأحد الحقول ، أو حتى فى العراء تحت الأشجار أحيانـا . وكانوا يسمون هذه العيشة «الكميون» . وكانـوا يعتقدون أن هذه هى الروابط الحقـيقية التى تجمع النـاس على الحب والتآلف والـتعاطف . . . كانوا يـهملون مظهرهم ، ولايهتمون بملبسهم ، ويتصرفون بعفوية ولايلقون بالا لإستنكـار الآخرين لهـم . . . كانـوا يأكلون قليلا ، ويـدخـنون كثيرا ، ويستمعون إلى الموسيقى فى كل الأحوال .

وقد تزامنت هذه الظاهرة مـع انتشار « الماروانا » . وهى نوع

من المخدر كالحشيش أو غيره من المغيبات . . . فأغرق الهيبيز فى تدخينها ، ومعهم كثير من طلاب الجامعة وخاصة الصغار منهم . . . وجدوا فيها هروبا من مشكلاتهم ، أو تذويبا لإحباطاتهم - أو هكذا كانوا يظنون . . . وقد ساعدتهم الماروانا على التمرد . . على الآباء والمربيين . . . كانوا يكرهون الشرطة ويسمون العساكر خنازير ، ويرون فيهم أشباحا تحد من رغباتهم ، وتقيد غرائزهم التى تريد الإنطلاق . . . وكم حدث من تصادم بين الطلاب الهيبيز ورجال الشرطة !

وثار جدل كبير فى أوساط الجامعة والعلماء ورجال القانون . . . فكان رأى يميل إلى ترك هؤلاء الشباب يفعلون ما يريدون . وكان رأى أن ينضبط هؤلاء وينخرطوا فى القنوات الرسمية للمجتمع ، فهم جزء منه لايجب أن ينشق عنه ، وأن الخسارة ستلحق الطرفين إذا حدث هذا الإنشقاق . وكان هناك رأى ألا تسجل الجريمة الأولى لتدخين الماروانا فى سجل حياة الطالب حتى لا تؤثر على مستقبله - الوظيفى والمعيشى - على أساس أنه ربما وقع فريسة لإغراءات الآخرين أو ضحية لأوهام سرعان ما إكتشف زيفها .

وإنقسم الناس بشأن الهيبيز إلى طوائف شتى . فمن فريق

يتعاطف معهم ويؤيدهم . إلى فريق آخر يعجب بهم وبشجاعتهم وإعلانهم رفضهم . وفريق ينكر عليهم ما يفعلونه ويراه ضربا من الجنون . وفريق يطالب بوقف هذه الظاهرة قبل أن تستشرى فى المجتمع وتعطل مسيرة تقدمه . وفريق لايبالى بما يحدث ، وربما اعتقد أن هذا سلوك طارئ سيختفى وحده . وطائفة ترى أن ظاهرة الهيبيز إفراز طبيعى للإحباط الشديد الذى يصادفه الشباب ، فى مجال التعليم ، والبحث عن فرصة عمل ، ومحاولة شق طريقه فى الحياة .

كما أن هناك طائفة من الناس أرادوا أن يجربوا عيشة الكميون مع هؤلاء الشباب . ولكن منعهم من ذلك الحياء والخوف من إنتقاد الآخرين ، أو منعتهم مراكزهم والوظائف التى يشغلونها من أن يسلكوا هذا السلوك . بل إن بعض الناس الذين كانوا يعملون فى وظائف ذات شأن - مديرين وغيرهم . . . دخلوا حياة الهيبيز . ولكن عاشوا حياتين . الأولى أثناء النهار ، يذهبون إلى أعمالهم ويؤدون واجباتهم كأحسن ما يكون الأداء ، وكما يتوقع منهم المجتمع وتتوقع منهم المؤسسات التى يعملون بها - يكدون ويتنافسون ويستبقون للوصول إلى الأهداف المناط بهم تحقيقها . وأما الحياة الثانية فتبدأ فى الليل . . . يخلعون رداء الحضارة . . ويجربون حياة البداوة . . . يتخلصون من جلدهم

« الزائـف » أو القنـاع الذى يطلـب منهـم المجتمـع ارتداءه . . . ويضعون جـلدا أو قناعا آخر ، يعدونـه من وجهة نظرهم طبـيعيا وتلقائيا . . ويطلقون لما أسماه فرويد « الهى » العنان ، بعيدا عن قيود المجتمع وضوابطه ورقابته . . . . وكانوا يسمون هؤلاء الناس « هيبيز منتصف الليل » .

☆ ☆ ☆

وشهد الفتى حدثا آخر ، تزامن مع ظاهرة الهيبيز ، والرفض الشائع بين الشباب لقيود المجتمع وأساليبه الرسمية المعتادة . فأراد بعض الطلاب ذات صيف أن تكون الدراسـة بالجامعة مفتوحة . بمعنـى ألا يكون هنـاك إلزام بمواد معـينة وساعـات محددة ، ذات تركيـب موضوعى مـقنن ، وإمتحـانات رسميـة دورية . . . وإنما يدرس الطلاب ما يريدون أن يدرسـوا . . . ويناقشوا الموضوعات التى يفضلون أن يناقشوهـا . . . وأن يربطوا كل ذلك بالمشكلات التى تواجههم ومعطيات العصر ومتـطلبات الحياة التى يعيشونها . وإختار الطلاب لجامعتهم المفتوحة أن يجلسوا فى العراء أيضًا . . . فهـى إذن جامعـة مفتوحـة المكان ، والـزمان ، والموضـوعات ، والجمهور . وإنضـم إلى هؤلاء الطلاب فريق من الأسـاتذة الذين تعاطفـوا معهم ، وإقتنـعوا بفكرتهم ، ورأوا فـيما يقولون مـطلبا عادلا ، ورأيا عمليا ، وإتجاها بناء .

واجتمع الطلاب والأساتذة . . وإنضم لهم من إنضم - بدافع الفضول أو الاقتناع أو التجربة . . . وبدأوا يتكلمون فيما يعن لهم من موضوعات . . . ويلتحمون فى مناقشة ما يترائى لهم من قضايا . . . مع بعضهم ، ومع الأساتذة . . . وبدأت الحلقة تتسع ، وتشبه إلى حد ما عواميد الجامع الأزهر بمصر . . . غير أن الأخيرة كانت تتميز ببناء معلوماتى واضح ، وجرعات مقننة يقدمها الشيوخ لتلاميذهم خلال فترات متتابعة . . . ولكن حلقة الجامعة المفتوحة كانت أقرب إلى جلسة المصطبة - على صغرها - والتى كان يجلس فيها الأصدقاء والمقربون - فى ريف مصر - قبل غروب الشمس ، وبالليل ، يسمرون ويتكلمون فى مشكلاتهم ويستعرضون أحوالهم ويأخذون المشورة من كبارهم وذوى الرأى . .

اتسعت حلقات الجامعة المفتوحة ، واجتذبت أعدادا متزايدة من الطلاب . . من كافة التخصصات . فالتخصص غير ذى بال هنا . . . ما دامت الموضوعات تهم العامة وتشغل أذهان الجميع . ومن يهتم بموضوع فليأت لمناقشته . . . ومن يجد مشكلة معينة - علمية أو إجتماعية . . - فليطلب اثارتها ويتعرف على آراء الأساتذة بشأنها . . .

غير أن هذه التجربة لم يكتب لها النجاح أو الإستمرار . . . فتر - بالتدريج - ذلك الحماس الذى كان مشتعلا عند الطلاب وبعض الأساتذة فى بداية الفكرة . كما أن الحلقات التى اتسعت ، بدأت تضيق مرة أخرى . . . وينصرف عنها الناس واحدا بعد الآخر . . . ثم كان أن إختفت لقاءات الطلاب بعد سقوط الأمطار ! فأين يذهبون ؟ إلا أن يعودوا إلى فصولهم القديمة . . التقليدية التى لفظوها سابقًا .

أما إدارة الجامعة فقد تركت هؤلاء الطلاب والأساتذة يفعلون ما بدا لهم . لم تعترض عليهم ، ولكنها فى الوقت ذاته لم تستجب لمطالبهم . وظلت المواد الجامعية - بتركيبها الرسمى وساعاتها المحددة ومحاضراتها المعتادة - كما هى . وإستمرت الشروط المطلوبة للحصول على شهادة معينة كما كانت . كل ما هنالك أن الجامعة رأت فيما يفعله الطلاب فرصة للتعبير عن أنفسهم ، والتنفيس عن الإحباط الذى يواجهونه فى الدراسة الرسمية الجادة - الصعبة كذلك . وربما أرادت منهم أن يخوضوا التجربة حتى يكتشفوا بأنفسهم أنها ليست عملية . فكل شىء يحتاج إلى تخطيط وتنظيم ورقابة . ولا تستطيع أن تترك الأمور تجرى عفو الساعة ، أو حسب أهواء الناس ، أو كما تتطلب الأحداث - التى قد يختلف الناس فى وزنها ودرجة أهميتها

وصلاحيتها للدراسة والبحث . كما أن الأمر يحتاج إلى قيادة واعية . . حريصة على إنجاح جهود الناس وبلوغهم الأهداف التى يريدونها .

ثم إنه من قال إن الجامعة لاتهتم بمجريات الأحداث ! إن الجامعة جزء من المجتمع . . وهى قلعة البحث ومنارة الفكر . فإذا كانت هناك مشكلات عملية . فإن الجامعة - إلى جانب مراكز البحوث الأخرى - تدرس هذه المشكلات . . . ترسل إلى الميدان فرق البحث تجمع البيانات وتحللها وتفسرها ، وتقدم العلاج الملائم لها . . . يسرى هذا على المشكلات الفنية والإقتصادية والإجتماعية . . . ربما كان هناك تقدم فى البحوث الفنية . أما الجوانب الإجتماعية ، والإنسانية ، والنفسية ، فلا زالت لا تأخذ حظها من البحث العلمى . كما أن أحدا لم يستطع أن يقدم علاجا مناسبا أو شافيا للأمراض الإجتماعية العصرية ، كما يحدث فى حال الأمراض العضوية أو المعضلات التكنولوجية .

هل استطاع أحد أن يحل مشكلة الإدمان مثلا ؟ أو يمنعها قبل حدوثها ؟ أو يقنع الشباب بعدم الوقوع فيه ؟ أو يحكم العوامل المؤدية إليه ؟ وهل استطاع أحد أن يقدم تفسيرا واقعيا لمشكلة

الغياب : غياب التلاميذ فى المدارس والجامعات ! وغياب الموظفين والعمال عن العمل ! إن الأسباب تختلف ، والعوامل المتداخلة فى هذه الظاهرة كثيرة . ثم إن أسباب الغياب اليوم ليست هى نفس أسباب غياب الأمس ، وستختلف بالتأكيد عندما ندخل فى القرن الجديد . ومن ثم فإن علاج الغياب الذى اتبع قديما ، لن يجدى اليوم أو غدا - مع تقدم ثورة المعرفة والتكنولوجيا ، وتعدد المغريات ووسائل الترفيه ، والتسابق للحصول على المتع الحسية والسلع المادية والسعادة الوقتية . . .

وينطبق نفس المنطق على ظواهر نفسية واجتماعية أخرى ، كالتعايش مع النفس ، والإختيار المهنى ، والتكيف مع البيئة ، والصداقة ، والزواج ، والعلاقات الأسرية . . وكثير غيرها . إن الجامعة وحدها لاتكفى هنا . . فلابد من تضافر جهود العلماء والمتخصصين وقادة الفكر والرأى ، فى الدين ، وعلم النفس والإجتماع ، والقانون . . . ولابد كذلك من التنسيق مع الهيئات المعنية كمراكز البحوث والدراسات .

فإذا تكاملت هذه الجهود استطاعت أن تصل إلى تفسير واقعى للمشكلات المحيطة والتى تختلف من المدن إلى القرى إلى الصحراء والمناطق البعيدة . وأهم من ذلك تصل إلى الحلول

الملائمة لهذه المشكلات . بل إن الأمر يتطلب النظر إلى المستقبل ، واستشراف المشكلات التى يمكن أن تستجد ، والعمل من الآن على حلها أو تفاديها أو التخفيف من حدتها .

☆ ☆ ☆

يذكر الفتى أنه فى بداية موجة العنف التى اجتاحت المجتمعات ، والتى لم تكن بالتأكيد بالصورة التى هى عليها الآن . . . نادى المعنيون والمتخصصون والعلماء ، كما طالب الكونجرس أيضًا بوقف عرض أفلام العنف ومسلسلات الضرب أو الحد منها .

وكانت رياضة الكاراتية قد بدأت تنتشر على نطاق واسع ، وأقبل الشباب عليها يتعلمونها ، فى النوادى والملاعب . . . وبدأ يظهر عدد من الأفلام السينمائية ، تستغل إعجاب الناس بهذه الرياضة . فاشتد الإقبال على هذا النوع من الأفلام ، الذى لاقصة فيه ولامضمون أو حبكة روائية - فى أغلب الأحوال . . . ولكن ضرب هنا وهناك . . . هجوم ودفاع . . . يكيل الممثلون لبعضهم طول الفيلم ، لكمات وركلات . . . لو كانت حقيقية لقضى عليهم بالموت أو الجنون .

وقد احتلت هذه الأفلام - لفترة معينة - مكانة أفلام رعاة البقر .. وإن كانت للأخيرة لمسات فنية وإنسانية .. قصة وحبكة درامية ... كما أنها تعتبر جزءاً من تاريخ الغرب .. ولهذا النوع من الأفلام جمهوره العريض - من الكبار والصغار ... وكانت تحرص هذه الأفلام سابقا على أن تصور راعى البقر إنسانا ، خيرا ، شجاعا ، ينتصر للحق ولايسكت عن الشر ويرفض الضيم ويرد الظلم عن الآخرين ... هذا بالإضافة إلى اللمسة الجمالية فى مثل هذه الأفلام .. كالرقعة الخضراء الواسعة ، والخيول النشطة الرشيقة ، وسحر التاريخ القديم .. ولكن مع كل هذا كان إطلاق النار يلعب دوراً كبيراً .. وكنت ترى راعى البقر فى هذه الأفلام يده على مسدسه ، مستعد دائمًا أن يجرده من غمده .. والشخص الحاذق هو الذى يسرع فى تناول المسدس وتصويبه ، والشخص الأحذق هو الذى يطلق النار قبل غريمه ...

خشى العلماء والمربيون على الأطفال والشباب من ظواهر العنف ... وإرتفعت أصوات تنادى بخفض المساحة التليفزيونية المخصصة لأفلام الضرب ومسلسلاته ، أو تأخير عرضها بعد أن ينام الأطفال .. كما إرتفعت شكاوى الآباء من تعلق أطفالهم بهذا النوع من الأفلام ، وإنفاقهم ساعات طويلة أمام هذا الجهاز

الساحـــر الفارغ الــذى يسيطـر على خـيالهـــم ، ويسرق منـهـم أوقاتهم . . . وأخـطر من ذلك عقولـهم ، فيعجبـون بما يرون ، ويقلدون « الأبـطال » الذين يشاهدونـهم يتحركون علـى الشاشة أحياء . . أصحاء . . أقوياء . .

غير أن المسلسلات لم تتوقف ، والأفلام لم تتعطل ، والعنف لم ينخفض ، بل إنه فى إزدياد مســتمر ، حتى لأنه أصبح ظاهرة يومـية معتـادة فى المجتمـعات الغربـية المتقـدمة يمكن أن يـصادف الإنسان جانـبا منها فى شوارع المـدن الكبيرة كنيـويورك مثلا . . . وهناك فئات متخصصة من الأشقـياء الذين يستخدمون العنف . . فمنهم من يهاجم النساء ، ومنهم من يتعرض للرجال ، ومنهم من يقصر نشاطه على سكارى الليل ، ومن يسطون على المنازل . . . إلى آخر هـذه الأنواع . . وهو مسلحـون ، يمشون وفى جيـوبهم مســدسات وبنادق . . . وأراد الـناس أن يدافعـوا عن أنفســهم ، فاشتروا بدورهم مسدسات وبنادق . . .

لقد كـان يثير الـفتى دائمًا فى قـريته أولئـك الذين يحـملون السلاح ويجوبون به الطرقات . . . إنه فى حالة البعض ضرورة ، كالذين يبيتون فى الحقول ، ويتـعرضون لهجوم ليس من الناس ، ولكن من حيوانات شرسة كالذئاب أو الضباع . . .

ولكـــن مـــاذا عـــن حـمل الـسلاح فـى الأعراس والمـوالد والأفراح . . . شهد الفتـى بعض هذه المهرجانات التى يلـتقى فيها الناس فرحـين مبتهجين - للـزفاف أو الطهور أو العـودة من سفر بعيـد . . . وكان بعض الـرجال يحمـلون بنادقـهم فى مثـل هذه الأفراح ، ويطلقون منها أعيرة نارية إبتهاجا وسعادة !!

هل فى إطلاق النار إبتهاج .؟ هل فى ترويع الأطفال والنساء والرجال سعـادة ؟ وياليت الأمر يقتـصر على الرعب الـذى ينتاب الناس ! إنه أخطر من ذلك بكثيـر . . فقد يصاب شخص أو يقتل آخر . . كما نقرأ فى الصحف منذ سنين ، وكأنه خبر واحد يتكرر دائمًا بصور متعددة وأشخاص مختلفين .

حضر الـفتى . أحد هـذه الأعراس فى قريـته ، عندمـا كان صبـيا صغيـرا . . . وكانت إحدى قـريباته فـى الحفل . . صبـية صغـيرة لم تـتجـاوز العاشرة مـن عمـرها . . جمـيلة كـالوردة الناضـرة ، رقيقة كالزهرة تناجى الهواء العليل . . . كانت تمرح مع صويحباتهـا . . كن يتابعن العرس فرحات مـرحات سعيدات . . . وربما تخيلت كل واحدة منهن نفسها فى المستقبل القريب مثل هذه العروس التى يحتفل بها اللـيلة . . وربما رسمت كل واحدة منهن صورة لذلك الـفارس الذى سيكون مـن نصيبها . . . إنـها أحلام

اليقظة . . الجميلة ، الوردية ، السعيدة . . . التى تعطى الناس - صغارا وكبارا - شعورا بالتفاؤل والأمل وإستمرار الحياة .

كانت الصبية تنظر من النافذة بشغف تتابع العرس . . . والبهجة تملأ قلبها الصغير ، والإبتسامة لاتفارق وجهها . . حتى جاء ذلك الرجل الغاشم . . وصوب بندقيته فى الهواء ، يحيى العريس وأهله ، ويسهم فى هذا المهرجان برصاصه . . . وأطلق النار . . . لتصيب البنت فى عينيها . . . فقدت الصبية نور عينيها فى لحظات . . .

أسرعوا بها إلى المستشفى ، فى البندر المجاور . . . حاولوا إنقاذها . . . لابد أنها الإمكانات الضئيلة التى لم تمكنهم من ذلك . . . أو لابد أنه إهمال الأطباء أو ضعف مهارتهم أو حيرتهم من هول الحادث . . . ولابد أنه القدر المحتوم قبل هذا وذلك . وعاشت الفتاة بقية عمرها كفيفة ، تثير شفقة الناس ، وتعصر قلوب أمها وأبيها وإخوتها لآخر العمر .

لماذا يتجول الناس بأسلحتهم هكذا ؟ دون ضابط أو قيود . . . إن النفس الإنسانية ضعيفة . . . وقد ينزغ الشيطان بين الناس . فينفعلون ، فتسرع أيديهم إلى أسلحتهم ويستخدمونها فى غير مواضعها . .

يذكر الفتى أنه ركب قطار الصعيد مرة فى إحدى رحلاته من القاهرة إلى بلدته ... كان يجلس إلى جواره رجل يحمل بندقيته .. لم يلق الفتى بالا للأمر .. فهو يرى كثيرا من الناس - رجال الشرطة والخفراء والحراس إلى جانب بعض الفلاحين - يحملون أسلحتهم على أكتافهم . ولكن أحد الريفيين الذى كان يجلس فى الكرسى المقابل ، شاهد البندقية فى يد الرجل .. ويبدو أنه أعجب بها ، فسأل الرجل أن يعطيها له ... فسلمها له الرجل بأريحية وشهامة كبيرة ... وأخذ الريفى يقلبها وهو معجب بها يمسح عليها وينظر إليها طولا وعرضا ... وصاح مادحا : هذه بندقية مليحة ، ثم ضغط على الزناد ... وأطلق رصاصة طائشة ، مرقت من نافذة القطار كالسهم وطارت فى الهواء ... وذعر الفتى ، وروع الأطفال ، واستيقظ النائمون ، وكان شعور المسافرين مزيجا من الهلع عند بعضهم ، والدهشة عند الآخرين ، وعدم المبالاة عند فريق ثالث .

☆ ☆ ☆

ولم يخطر ببال الفتى أنه سيقابل يوما ما أثناء بعثته فى أمريكا ، أحد الذين كانوا يستخدمون العنف ، وعلى وجه التحديد السطو على البنوك . فقد تخصص فى هذا المجال مع

أشقياء آخرين وقضى فترة العقوبة بالسجن ، ثم خرج تائبا مواطنا صالحا فى المجتمع ، يعمل مندوب بيع لإحدى شركات السيارات الكبيرة . . . وكانت قصته كما يلى .

ذات صباح قارس البرودة ، سافر الفتى من المدينة الصغيرة الجامعية التى كان يقيم فيها إلى مدينة كبيرة ، حيث تقع إحدى الشركات التى سيزورها اليوم ، والتى كانت تقع ضمن عينة الشركات التى يبحثها لرسالته للدكتوراه. وما أن هبط من الباص ، حتى قصد محطة وقود يسأل فيها عن موقع الشركة . . . وكان يقف فى المحطة رجل وقور ، يلبس معطفا ثقيلاً غاليا ، وقبعة أنيقة ، ويضع يديه فى جيوبه . . . أجاب الفتى بأن الشركة تقع فى شارع كذا ، المتفرع من شارع كذا ، وهى على بعد خمس دقائق من محطة الوقود . . ثم تطوع ليأخذ الفتى فى سيارته يوصله إلى هناك . . . وهذا أمر لايحدث كثيرا - أو قد لايحدث مطلقا - فى المدن الكبيرة . . . حيث كل فرد مشغول بشأنه ، الجميع يسعون ، يريدون اللحاق بمصالحهم ، وكأن أشباحا تطاردهم . . . ولا أحد يلتفت لغيره أو يوقف مسيرته ليساعد الآخرين . . .

يذكر الفتى أنه كان يقود سيارته مرة فى الطريق السريع

المفتوح بين مدينتين ، ورأى من بعيد سيارة تقف على الجانب الأيمن من الطريق وقد اضطرمت فيها النار ، واندفعت منها ألسنة اللهب . . . فهدأ من سرعته حتى يتمكن من الوقوف بالقرب من السيارة ، ليقدم ما يمكنه من مساعدة لصاحبها الذى كان يقف إلى جانبها عاجزا ضائقا حيران . . . وكانت السيارات تمرق من جانبه كالسهام . . وأخرج بعض سائقيها رءوسهم من النوافذ ، وسبوا الفتى لبطئه فى الطريق السريع ، المجنون . . . والعجيب أن صاحب السيارة المحترقة أيضًا دهش أن أحدا قد توقف لنجدته ، فهو لم يتوقع ذلك أبدا ، إلا أن تكون سيارة الشرطة أو الإطفاء . . . وطلب من الفتى بأدب أن يبلغ إدارة الإطفاء حتى تأتى لإنقاذه . .

إن فى المدينة طابعا يطبع الناس بأنانية شديدة . . وربما لايتورع شخص أن يدوس على أقدام الآخرين حتى يصل . . . سبحان الله . . . حتى فى المدن الصغيرة يمكن أن يحدث هذا . . . فمرة كان الفتى عائدا بسيارته من الجامعة إلى منزله بالليل . . . ولمح أحد زملائه الطلبة الأمريكيين يمشى فى الطريق المعاكس قاصدا منزله . . . وكان الفتى يعلم أين يسكن هذا الزميل ، إن بيته مازال بعيداً . . وكان الجو باردا . . فحدثته نفسه أن يرجع ليأخذ هذا الشخص لبيته . . . فلن يستغرق الأمر

أكثر من عشر دقـائق بالسيارة ، أليس من حقوق الـزمالة أن يفعل المرء ذلك ؟

وركب الزميل شاكرا . . . ولكنه مـا أن علم أن الفتى قد غير اتجاهه ليوصله إلى منزله ، حتى أنكر ذلك ، ولامه عليه ، ونقده قائـلا : لاتغيـر وجهتك لأحـد مهمـا كان الأمر . . . إمـض فى طريقـك ، مادمت ماضيـا فيه !! إذن قد يبـدو فعل الخير أحـيانا منافـيا للعرف ، أو لثـقافة شعــب معين ، أو مـدينـة أو حـى أو قبيـلة . ولكن رغم ذلك سـيظل الصحـيح صحيحا أبـد الدهر ، وكما قال الشاعر :

من يعمل المعروف لايعدم جوازيه لايذهــب العرف بين الله والناس

والدليـل على ذلك ، هذا الـرجل الذى قابـله الفتى بمـحطة الوقود ، وعرض عليه أن يوصله بسيارته إلى حيث يريد . . . إنه أراد أن يمد يد العون لغريب عن المدينة . . .

ركــب الفتـى سيـارة الرجل شـاكرا . . وسألـه الرجـل عن موعده ، وكان بعد ساعة تقريـبًا . . . فعرض عليه أن يضيفه . . وذهبا إلى كافتريا مجاورة وقدم الرجل للفتى قهوة ساخنة ، بددت ما كـان يشعـر به من بـرد وعطـش . . . وتجاذب الإثنـان أطراف الحديث . . . وعـلم الرجل بـالمهمة الـتى جاء الفـتى من أجلـها

وأعجب بها ، حتى أنه ناقشه فى بعض جوانب النظرية التى كان الفتى يبحثها فى رسالته . . كما سأله ماذا ينوى أن يفعل بعد أن يحصل على شهادته .

وأخبره أنه يعمل مندوبا للبيع بإحدى الشركات الكبرى للسيارات . وكان مكتبه على مقربة من المقهى . . فذهبا إليه . . كان مكتبا واسعا فسيحا تحوطه حوائط زجاجية . ولم يتوقع الفتى أبدا أن يكون هذا الشخص فى سابق عهده ، أحد أفراد العصابات التى كانت تسطو على البنوك .

إنكمش الفتى فى كرسيه ، وانتابته وحشة ودهشة وربما خوف . . . ونظر إلى الرجل كأنه يريد أن يعرف هل هو مازح أم صادق !! فضحك الرجل وأخبره أن ذلك كان فى السابق . . . لقد إقتحم مع زملائه أكثر من عشرين مصرفا . وكان مجموع العقوبة التى حكم بها عليه - بعد أن أمسكته الشرطة وقدم للمحاكمة - مائة وخمس عشرة سنة سجنا !

سأله الفتى وهو مأخوذ : وهل كنتم تفعلون فى البنوك التى إقتحمتموها ، مثلما نرى فى أفلام السينما التى تصور هذا النوع من الجرائم ؟ ترعبون الموظفين ، وتغتصبون النقود بالقوة ، وتنصرفون بسرعة متهددين متوعدين ؟ قال : تمامًا كما نرى فى أفلام السينما !

دخل الرجل السجن ليقضى فترة العقوبة ، والتى حتما كان سيموت قبل أن يتمها . ولكنه لم يلبث فى السجن من هذه الفترة سوى ثمانى عشرة سنة فقط !! ماذا فعل خلال هذه السنوات الطويلة ؟ أنفق وقته كله يقرأ كتب القانون فى مكتبة السجن . كان يريد أن يبرأ نفسه . . . كان يبحث عن منفذ أو ثغرة قانونية ينفذ منها إلى الخارج . . إلى الحرية ، والهواء ، والنور . قرأ كل كلمة وحرف فى القانون . . . طلب كتبا كثيرة . . إنكب عليها يدرسها . . . حتى تخصص فى القانون - بلا مدرسة ولا جامعة ولاشهادة رسمية .

ووجد الثغرة التى كان يبحث عنها بعد هذه الثمانية عشر عاما . . . وخرج من السجن . . . إنه يصلح - علما وتأهيلا - كما قال للفتى أن يكون محاميا . . ولكن لايستطيع ممارسة المحاماة بحكم سوابقه . . . إذ كيف يترافع ويدافع عن المتهمين ، وكان فى الماضى منهم . . كيف - كما قال أحمد شوقى - يداوى القلب من لا له قلب !! أما إحدى الجامعات فى المنطقة فقد استضافته أستاذا زائرا يدرس بها القانون . . . إنه الآن يمتلك مهارة كبيرة . . فقد جرب القانون مرتين - هاربا منه ومحاربه ومتحديه ، ومقبلا عليه باحثا متأملا فيه . . . خائفا من بطشه وسلطانه وسطوته ، راجيا متعلقا فى منافذه ومخارجه . . .

إنه القـبيـح الجـميل ، الظـالم العادل ، المجـرم التائب ، المـتهم البرئ . . .

قص على الفتـى - خلال الساعة التى إلتقيا فيـها - جانبا من مغامرتـه الكثيرة . وكيف أنه كـان ينفق المال ببذخ . . فـكما كان يحصل عليـه بسهولة . . كان يصرفه أيضًا بـسرعة . . . كان يرتاد أماكن اللهو واللعب . . . يسافر إلى بلاد متنوعة . . . يعيش حياة ملؤها البذخ والترف . . . ولما علـم أن الفتى مصرى ، أخبره أنه إلتقـى مع الملك الـسابق فاروق كثـيرًا . . ولعب مـعه الورق . . وحكى له كيف أن الملك كان إجتمـاعيا ، حاضر البديهة ، سريع النكتـة . . ينفق بلا حسـاب . . ويحاط دائمًا بالمعـجبين . . وله أصدقاء من شتى أنحاء العالم .

وأخرج الرجل من مكتبه ملفـا يحتوى على صور وقصاصات كثيرة مـن الورق ، أطلع الفتى علـيها . . . هى حصيلة مـا كتبت عنه الصحف . . إنه رجل مشهـور ، يعيش الآن فى منزل كبير ، توجـد به ثمـانى غرف واسعة ، يعوض بها - كمـا قال ضاحكا - الضيـق الذى كان يعـانى منه فـى السجن . كـما أخبر الـفتى أن إحـدى شركات الإنتاج السينمائى ، ستـنتج قصتـه قريبًا فـى فيلم مثير . . .

☆ ☆ ☆

صادف الفتى إذن كثيرا من الناس . . . وشهد كثيرا من الأحداث . . . وكون عديدا من الصداقات . . . قابل أناسا من بلاد مختلفة . . . منهم طلاب العلم ، والأساتذة ، وأصحاب الشركات ، والأطباء ، والمديرون . . .

يذكر الفتى بود شديد ، جاره الأمريكى العجوز الذى كان يجلس فى شرفة منزله ، وحيدا إلا - على ما يبدو - من ذكرياته وآلامه . . . عندما كان الفتى يغادر بيته قاصدا الجامعة - وكان هذا أول بيت سكن فيه فى المدينة التى كانت توجد بها الجامعة - يمر بمنزل الرجل . . . فيحيه هذا دون أن يعرفه . . . ثم إعتاد على رؤيته ، حتى أصبح بمرور الوقت يرحب به ويبتسم عندما يراه قاصدا الجامعة أو عائدا منها . . . وكان أحيانا يستوقفه ليقول له كلمة أو كلمتين . . كيف حالك . . الجو اليوم بديع . . . إنها الوحدة ، والعزلة التى تتزامن مع كبر العمر . . . لقد خيل للفتى أن هذا العجوز ينتظره ، ويتوقع أن يسأل عنه ، وربما يفتقده إذا لم يره صباحا أو مساء . . . لقد عثر على صديق - وإن كان على بعد - فلم يزد ما يقولانه عن كلمات معدوده . . . ولكنها بالتأكيد كانت تعنى الشىء الكثير للرجل الكبير . . .

وذات صيف استأجر الفتى غرفة فى أحد المنازل . . وكانت

صاحبة البيت أيضًا سيدة كبيرة ، تفرق من حولها الأهل والأقارب . . لا أحد يسأل عنها ، إلا مكالمة هاتفية فى عيد ، أو بطاقة بريد فى العيد الذى يليه . . كانت تعيش وحيدة لايؤنس وحشتها سوى كلبة صغيرة مدللة ، كانت تصطحبها قائمة وقاعدة ونائمة . . .

وكان الفتى يضيق بنباح الكلبة ، وقفزها حوله ، وجريها هنا وهناك ، وإلتصاق شعرها الأبيض بملابسه وأثاث البيت . . . وما لبثت الكلبة أن علمت أن الفتى لايميل إليها كثيرا . . فكانت حين تراه تلوذ بسيدتها التى ضاعفت لها جرعة الحنان .

إن من حق الكلاب أن تعيش وتأكل وتلعب . . ولكن كان يثير دهشة الفتى ذلك الكم الهائل من السلع التى ينتجونها للحيوانات الأليفة : القطط والكلاب ، من المواد الغذائية ، إلى اللعب ، ومنظفات الأسنان ، والفيتامينات . . . ويعرضونها فى الأسواق بعناية ، ونظافة ، وشكل جذاب . . . ويعلنون عنها فى التلفزيون . . . فترى هذه الإعلانات تصور الحيوانات الأليفة وكأنها فى مرتبة الإنسان . . . كان أحد الإعلانات عن سلع الكلاب يقول : إنه ليس مجرد كلب . . إنه أكثر من كلب . . إنه عضو من أعضاء العائلة . . .

يذكر الفتى إحدى القصص المثيرة التى كتبها أمين يوسف غراب فى أحد كتبه منذ زمن ، عن كلب مدلل يأكل قطعا كبيرة من اللحم ، وعسكرى الدرك الذى لم يكن يجد ما يتبلغ به . . . إن ذلك يحدث فى بقاع كثيرة من العالم ، منها أمريكا ذاتها . . . فعندما كان الفتى يقرأ عن ظاهرة الفقر فى أمريكا ليكتب بحثا عنه ، لم يكن يتصور أبدا أن فى بلد الوفره والغنى فقراء ، ومساكين لايكادون يجدون قوت يومهم . . . ولكن . . . سبحان الله ، يوجد الفقر والغنى فى كل مكان . وهى ظاهرة نسبية . . . فالفقير فى بلد معين قد يكون غنيا بمقاييس بلد آخر ، والعكس صحيح . . . إنها الفرص ، والدخول التى يعيش عليها الأفراد ، وقدرتهم على الحصول على السلع والخدمات المتاحة ، والإعانات التى يحصلون عليها من مؤسسات الضمان الإجتماعى ، وخط الفقر الذى تحدده المجتمعات . . والذى يتباين بشدة فى البلاد المختلفة .

سيقرأ الفتى - بعد بعثته بسنوات ، ومن قبيل التناقض الذى يحدث فى هذا العالم - أن بعض الناس فى البلاد الغربية ، عندما تموت كلابهم أو قططهم ، يلجأون إلى خدمات هيئات متخصصة فى تحنيط الحيوانات والطيور الأليفة . . . ويحتفظون بها فى منازلهم بعد تحنيطها . . ويضعونها فى مكان بارز عزيز . . .

ويكلمـونها ويدللونـها كما كانوا يفـعلون عندما كـانت حية . . . قالت إحدى النـساء معلقة على كـلبها المحنط الذى تحتـفظ به فى بيتها : إنه ينظر إلىّ . . أحس أنه معى . . إنه لم يمت !!

إنهم يـعشقون هـذه الحيوانات الأليـفة . . . دعى الفـتى مرة زميله الأمـريكى الذى كان يسكن مـعه فى نفس البيت فـى المدينة التى تـقع فـى الجـامعـة ، لـيزوره فـى مـنزل أهله فـى مـديـنة مجـاورة . . . ورأى الـفتى فـى هـذا الـبيـت صنـوفا مـن الحيوانات . . . رأى تمساحا صغيرا فى حوض مائى . . . وأقبلت عليه أخت زميله لتريه فأرها المدلل الذى تحتفظ به فى جيبها . . . والجينى بج الذى يقبع فى قفص صغير . . . هذا طبعا إلى جانب الكلب ، والذى يحتل مكانة مميزه بالبيت .

يقـول المـثل الأمريـكى : إن الـكلـب هـو أحـسن صـديق للإنسان . . . مخـلص تابع وفى ، يدافع عن صاحـبه ويذود عنه ولا يرضى عن صحبته بديـلا ، وهو الحارس الأمين الذى لايغفل عن حراسة ما يكلفه به صاحبه . . . كما نقرأ فى كليلة ودمنة عن ذلك الكلب الذى راح ضحية الواجـب ، إذ قتله صاحبه - عندما رأى فمه مـلطخا بـالدم - ظانا أنـه ألحق بابنـه أذى ، بينمـا كان الكلب يدافع عن الولد ، فقتل الثعبان الذى كان يهاجمه . . .

لذلك فإن الشاعر العربى القديم ، عندما أراد أن يمدح الرجل ، شبهه بالكلب - فى حفظ الوداد . . . وكان هذا قبل أن يهذب الشاعر سلوكه العفوى ، ويرقق شعوره ، ويوجه ملكته الشعرية حسبما يقضى الذوق السليم .

ولاغرو أن كثيرا من الهيئات والجمعيات تقوم لحماية الحيوانات المنزلية وغيرها . . . حتى الحيوانات البرية المتوحشة ، تنادى مثل هذه الهيئات بعدم اقتناصها . . حتى لاتنقرض ، ويفقدها الناس ، ويذهب جمالها ، وتخلو منها البيئة المحيطة . . . ولكن . . . ماذا عن الآدميين الذين يتضورون جوعا ، أو يموتون ، أو يقتلون ، فى أماكن كثيرة من العالم ، وخاصة ما يسمونه بالعالم الثالث !

☆ ☆ ☆

كان الفتى ينظر فيما حوله ، ويتأمل ، ويثير فى عقله أسئلة كثيرة . . يجد عن بعضها إجابات ، ولايجد عن البعض الآخر . . . كان يحب البيئة التى يعيش فيها . . . ينفعل بمشكلاتها . . يتأقلم معها . . . وكانت الجامعة تنظم ندوات . . وتستضيف محاضرين متخصصين فى الموضوعات التى تثير إهتمام الناس . . وكانت تعقد مناظرات بين الخبراء بشأن هذه

الموضـوعـات . . . كمـا كان بالجامـعة ناد دولـى يلتقـى دوريا ، يجتمـع فيه الطلاب والأساتذة ، أمريكيين وأجانب من كافة أنحاء العالم .

وكان الفـتى نفسه أحـد المتحدثين . . فـقد استضافـه النادى الدولـى وبعض المدارس لـيتحـدث عن بلـده مصر . ومرة دعـته إحدى الكـليات المجاورة لـيتكلـم - فى ندوة عن الأديـان - عن بعض مبادئ الإسلام ، ليس باعتباره فـقيها فى الدين أو باحثا فى علومه ، ولكن باعتباره فردا مسـلما عاديا . كانت جلسة حية . . حافلة بالأسئلة والأجوبة والنقاش . إن كثيرا من جوانب الإسلام لايعلمها الناس ، ويريدون أن يعرفوها .

كما دعى مرة ليلقى محـاضرات - فى موضوع تخصصه هذه المرة - على مـجموعة من الطلـبة فى دير كاثوليـكى . . . وكانت هذه أول مرة يدخل ديـرا . . . وكان القسس الشبان يـعيشون فى هذا الـدير الـذى كان لهـم منـزلا ومعـبدا ومعـهدا . . . وكـانوا ينتـظمون فى الفـصل إذا جاء الفتـى ، يستمـعون إليه ويسـألونه ويناقشونه . وأعجب القسيسون بـالفتى ، وأقبلوا عليه وعبروا له عن شكرهم وإمتنانهم . وكان أحد هؤلاء القسيسين متخصصا فى قراءة خط اليـد . فطلب من الفتـى أن يكتب له فقـره أو فقرتين

بخط يده ، حتى يحلله ... ففعل الفتى .. وكتب له القس كلاما كثيرا عن شخصيته ... كان معظمه إيجابيا مشرقا ... وذكر أن الفتى يحب العلم ، تواق له ، باحث عنه ... وأنه شخص مشحون بالعواطف ، تؤثر فيه المواقف الإنسانية إلى درجة الدموع . مازال الفتى يحتفظ بهذه الكلمات الرقيقة التى كتبها له القسيس .

٩

العودة ...

وطنى لو شغلت بالخلد عنه

نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

☆ ☆ ☆

خلقت ألوفا لو رجعت إلى الصبا

لفارقت شيبى موجع القلب باكيا

والآن . . . لم يبق سوى الرحيل مرة أخرى . . . العودة إلى مصـر ، الوطن الغـالى ، الذى يعـيش فى وجدان الـفتى وقلـبه وفـكــره . . . حان الآن وقـت رد الجمـيل . . . لـلأبويـن . . للإخوة . . للناس المصريين . . طلاب العلم .

كانت سنوات جميلة فعلا تلك الـتى قضاها الفتى فى بعثته . كانت ملـيئة بالتحـصيل ، وتلقى العـلم والمعرفة . كانـت خصبة بالنـاس الذين صادفهـم . . . الشخصـيات الثريـة المتنوعـة التى قابلها . كان الفتى محظوظا بإقـامته فى مدينة صغيرة ، توجد بها جامعة كـبيرة وكلية صـغيرة مشهورة . فـأما الجامعة فكـانت تمتلأ بالطلاب من الجنسين ، وتضم الأمريكان إلى جانب خليط لا بأس به مـن الأجانـب . وأما الكـليـة فكانـت للأولاد . . وهـى من الكليات الخاصـة ، باهظة التكاليف ، لايرتادهـا إلا أبناء القادرين والأغنياء من صفوة طبقات المجتمع .

كانت المديـنة كلها فى الحقيـقة عبارة عن جامعة . . . فـأينما ذهبـت تجـد طـلابا . . وأينـمـا إتجـهـت تجد أسـاتذه وعامـلين بالجامعة . . . وأى مـكان قصدت تجد أناسا لهم صلـة بالجامعة . كما كانت المنطقة المحيطة كلها تعج بالكليات الصغيرة والخاصة . . التى تقـبل الطلاب بمصاريف مـرتفعة . وفى مقابـل كلية الأولاد

الخاصة كانت توجد ثلاث كليات أخرى خاصة للبنات . . . كذلك كانت هناك جامعات وكليات أخرى مملوكة للولاية ، تقل تكاليفها عشرات المرات ، وتقبل الطلاب من الجنسين . . . كما كانت هناك كليات تابعة للكنيسة تمولها وتديرها . . . وكانت كل من هذه الجامعات والكليات تقيم حفلات وأنشطة اجتماعية فى الأعياد والمناسبات تستضيف فيها طلاب الكليات الأخرى . . .

أحب الفتى مدينته الصغيرة التى عاش فيها زهاء ست سنوات . كانت مدينة جميلة بسيطة ، تجد فيها رائحة التاريخ القديم إلى جانب الطراز الحديث . . . أما الطبيعة فى هذه المدينة ، فقد حباها الله منظراً رائعًا . . . الشجر الكثيف الذى يحيط بالمدينة طولا وعرضا . . والذى يكون رائع الخضرة خلال الربيع والصيف . . ثم يتحول فى الخريف إلى ألوان صفراء وحمراء إلى جانب الخضراء ، ذات درجات مختلفة . . . فكأنك ترى لوحة ضخمة من الفن الرفيع بدعتها يد الخالق القدير . فإذا هبت رياح الشتاء ، وهطلت الأمطار ، وسرت البرودة . . . بدأت أوراق الشجر تتساقط على الأرض تفرشها ببساط طرى متعدد الألوان .

فإذا جاء فصل الشتاء بدت هذه الأشجار عارية ، شاحبة ،

حزينة ، يخيل إليك من سحر المنظر أنها تبكى ، فتسرى فى جسدك قشعريرة . . . فإذا سقطت الثلوج ، اكتست الأشجار بلون ناصع البياض . . وكأن بساطا أبيض ساحرا انتشر ليغطى كل مكان . . . الجو بارد . . . ولكنك تشعر بانتعاش ونشاط . . . الجو نقى ، صاف . . . وكأن الأشجار والبيوت والشوارع . . . وكل شىء يغتسل ، ينفض عنه أدرانه . . . آه لو كانت النفوس والقلوب أيضًا تغتسل . . من ذنوبها ، وضغائنها وأحقادها وتحيزاتها . . . فتصبح فى صفاء هذا الجو البديع .

كان الفتى يخاف من البرد عندما كان يعيش فى وطنه قبل البعثة . . وكان يستعد كل شتاء ليصاب بزكام . . كان ينتظره ، يستدعيه ، يستقبله . . . ضيف ثقيل لم يجد من صحبته بدا . وكان يحب الربيع والصيف . . حيث الإنطلاق ، والهواء ، والنيل الحبيب . أما فى مدينته الأمريكية ، فقد أحب الشتاء أيضًا إلى جانب الصيف . . كان ينظر بعمق إلى الفضاء العريض ، ويتأمل الجليد وهو يتساقط ، قليلا فى أول الأمر ، كشعيرات القطن الصغيرة ، بعضها يذوب قبل أن يلامس الأرض ، وبعضها يستقر صحيحا . . . ثم يتراكم ويتراكب . . . فيغطى الأرض ، والبيوت ، والشجر ، والجبال . . . ويهرع رجال البلديات

بسياراتهم وأدواتهم ومنظفاتهم . . . يزيحون الجليد من الطرقات ، حتى يستطيع الناس أن يمشوا ، والسيارات أن تسير . . . ويلقونه على الجوانب وفى المساحات الخالية .

أما الجبال فتكتسى تمامًا بالجليد ، الذى يظل لونه ناصعا متلألأ ، ثم ينتشر عليه الهواء البارد فيجمده ، تمهيدًا لاستقبال الرياضيين وهواة التزلج . . . فيهرع هؤلاء - رجالا ونساء وأطفالا - إلى أدواتهم المختلفة ، وملابسهم الثقيلة ، ويقصدون الجبال - القريبة والبعيدة ، المنخفضة والشاهقة - سعداء فرحين ، يفتحون أذرعهم وصدورهم وقلوبهم للطبيعة الخلابة ، غير مبالين بالبرد . . . يتزلقون على الجليد - يضحكون ويمرحون ويصرخون . . . وكأن الجليد بساط سحرى ، لايطير على الهواء ، ولكن يسرى على الجبال . . . يقذفهم من قمة الجبل إلى قاعدته . . . ويأخذهم يمنة ويسرة وفى كل إتجاه . . .

بعض الناس يقضون تمرينهم سالمين ، والبعض الآخر تزل أقدامهم . . . فتنكسر . . وتوضع فى الجبس أسابيع . . . . وكان شيئًا عاديا أن ترى فى الجامعة طول فصل الشتاء طلابا من الجنسين ، يتوكأ الواحد منهم على عكاز أو إثنين ، يمشى بصعوبة . . أو يجر رجلا ويقفز بالأخرى . . . والطريف أن

أصدقـاء هؤلاء الطلاب يـكتبون لـهم علـى الجبس الذى يـحوط السيقـان ، كلمات تعـكس كثيراً من ثـقافة هذا الشعـب وطريقة حياته . . . كانت هذه الكلمات خليطا من التمنيات بالشفاء ، إلى التندر بما حدث ، وتـأكيد الصداقة أو الحب ، والنكتـة السريعة ، والتـعليق الـذكـى ، إلى تـوقيع الأسـماء ، وذكر مكـان الحادث وزمانه . . .

كانـت هذه الكـلمات بمـا فيها مـن عفويـة ومرح وبسـاطة - وأحيانـا ما فيها مـن أخطاء لغويـة وهجائية - تـذكر الفتى بـتلك الرسائـل القصيرة الـتى كان يكتـبها الأصدقاء فـى مصر لبعـضهم عندما يزورونهم فلا يجدونهم . . . فيتركون لهم كلمات . . كانت تعـكس درجة الود بـين هؤلاء الأصدقـاء ، « وخفة الدم » الـتى يعبرون بها عن هذا الود . . يبدو أن للشباب - فى أنحاء العالم - طابعـا معينـا ، يتقاسـمون بعض خـصائصه حـتى وإن إختلـفت أوطانهم وأجناسهم ومشاربهم . . .

كمـا كانـت هذه الكـلمات تـذكره أيـضًا بما كان يـقرأه عـلى الشاحنات - الـكبيرة والصغيرة - التى تجـوب شوارع مصر ، فى مدنها وقراها . . . إنك تقرأ على هـذه الشاحنات عجبا . . . فمن الأمثال والحكم الـقديمة . . إلى مطالع أغنـيات ومواويل . . إلى

أنصاف بيوت من الشعر . . . كما أن بعض الحكم المكتوبة لاتخرج عن كونها من أفكار كاتبها ، والذى لم يكن الفتى يدرى هل هو صاحب السيارة ، أم سائقها ، أم عامل الدوكو ، الذى أبدع هذه الأفكار . . .

كذلك فإن كثيراً - إن لم يكن معظم الكتابات - يهدف إلى درء الحسد ، والشك فى الآخرين ، وإتهامهم بنية الحسد ، وتمنى زوال النعمة - التى هى اللورى فى هذه الحال . . . أكثرها إنتشارا مثلا عبارة : يا ناس يا شر ، كفاية قر . . . لاحظ ما فى هذا القول من تعميم قاس ، وظلم لكل من تقع عيناه على هذه الشاحنة . . . وغالبا لايكتفى كاتب هذه العبارة بذلك ، ولكن يرسم إلى جوارها عينا ، لابد أنها عينك التى تبحلق فى شاحنته ، ويرشق فى هذه العين سهما طائشا . . هو الذى سيبطل مفعول الحسد ، ويفسد على الحاسد نيته !! وقد تنبه بعضهم مؤخرا لقسوة هذا القول ، فاستبدله بعكسه : ياناس يا عسل . . . فلان وصل . . . ياناس يا فل . . الخير للكل . . .

وكانت تثير الفتى أيضًا عبارة « ما تبصليش بعين رضية (وهنا ينقلب المعنى تمامًا ، فكاتب العبارة يقصد رديئة ، أى حاسدة أو غير طيبة النوايا ، وليست راضية بالتأكيد) وهى فى ذلك تشبه ما

يقولـه العامة مـن « العمل الـرضى » ، ويقصـدون الردئ . . . ولكنهم يحـولون الدال إلى ضاد . . . كما يقلب كـثير من الناس الصاد سينا ، والقاف كافا ، والتاء طاء . . . . . !!

كان يحزن الفتى كثيراً أن يتكـلم رجال ونساء بهذه الطريقة - وبعض هـؤلاء ذوو مراكز وعمـرهم كبيـر . . . ولايدرى إن كان الخطأ من جانبهم ، أو هو التقصير الذى وقع فيه مدرسوهـم ، أو بسبب طريقة التعليم ، أو وسائل الإعلام التى يظهر فيها أشخاص يتكلمون العربية بطريقة عجيبة ، وكأنهم غرباء عنها أو كأنها غريبة عنهم . . . إن إتقان اللغة جزء من شخصية الفرد ، والإعتزاز بها جزء من هويته الإجتماعية والوطنية .

لقد إستلم الفـتى عندما كان يعد رسالة الدكتـوراه ، تعليمات وتوجيـهات كثيرة عــن كتابـة الرســالـة ، من ضمنهـا الجوانب اللغوية . وكانت هذه التعليـمات توزع على الأمريكيين والأجانب سويا . وكان بها تـنبيه هام . . بأنه لن يسمـح بأى خطأ لغوى - فى الـنحو أو الهـجاء فى الـرسالة . . ويـجوز رفض الرسـالة أو تأجيلها إذا كانت هناك مثل هذه الأخطاء .

ليـت جـامعاتنا تنبـه لذلك . . وليــــت باحثينا يتنـبهون له أيضًا . . . وإذا لـم يستطع الباحثون أن يكـتبوا لغة عربية سليمة ،

أو إذا كانوا قد نسوا قواعدها (وهذا ما لايصح أبدا) فلا أقل من أن يسندوا أمر مراجعتها لأحد المتخصصين يصحح ما بها من أخطاء .. إن العمل البحثى كل متكامل ، واللغة أداة للتعبير .. فيجب أن يتقن الباحث التعبير ، حتى تصل رسالته إلى القارئ كما يعنيها هو ، وبالمعنى الذى يحرص أن تصل به ... لقد سعد الفتى كثيرًا حين قال له أحد أعضاء لجنة مناقشة رسالته للدكتوراه ، وكان أستاذا قديرًا متمكنا من ناصية لغته : أنا قارئ متشدد ، تهمنى سلامة اللغة ، وربما تضايق منى كثيرون لذلك .. ولكنى عندما قرأت رسالتك ، لم أجد بى حاجة لتصحيحها .

☆ ☆ ☆

أحب الفتى مدينته التى عاش فيها سنوات بعثته ... وكان يجد فى حسن الطبيعة بها ما يسر خاطره ويبهج نفسه المتطلعة دائمًا للجمال .. كما كان يثير إعجابه التغير الشديد فى حالة المناخ ... تبارك الله .. فمن صفاء الجو والشمس الساطعة ، إلى ركام السحاب يغطى السماء .. والأمطار الخفيفة حينا والغزيرة أحيانا .. والبرق والرعد ... ثم الجليد إذا كانت الشتاء ... وربما استمرت الأمطار والثلوج أياما ، أو أسبوعا ، أو أكثر

قليلاً . . . ولكن الحياة لم تكن تتعطل بسبب تغيرات الجو ، إلا في حال العواصف الجليدية الشديدة . . . فإذا بلغت الثلوج ارتفاعا معينا تعذر على الناس ركوب سياراتهم ، أو السير على الأقدام . . . فتغلق المدارس أولا ، وتتعطل بعض المصالح . . . أما في تقلبات المناخ العادية ، فإن الحياة تسير في نهجها المعتاد . . . ربما ينخفض إيقاعها السريع قليلاً . . . ولكنها ماضية ، متقدمة ، الناس يذهبون إلى أشغالهم يعملون . . ثم ينفضون إلى بيوتهم يستريحون . . ثم يقصدون أماكن اللهو يلعبون . . .

حدث مرة عندما كثر الجليد واشتد البرد ، أن تجمدت كفا إحدى جارات الفتى . . . وجاءه زوجها يسعى - بعد منتصف الليل في ليلة قارسة البرودة . . . يرجو الفتى أن يأخذه وزوجه في سيارته لأقرب مستشفى ، حيث أن سيارة الزوج لم تدر من شدة البرد . . . ولاغرابة في هذا . . . فقد كان جميع الطلاب بالجامعة يركبون سيارات مستعملة ، « نصف عمر » ، لضيق ذات اليد ، ولرخص هذا النوع من السيارات . . وكان بعض هذه السيارات يسير . . والبعض الآخر يتوقف . . . والبعض الثالث يتلف ويكف عن الدوران تماما . . .

هرع الفتى إلى سيارته .. ولحن الحظ دارت .. فأخذ الزوجين ومضى ... كان الليل يتوغل ... وكان البرد لايحتمل ... والمرأة تشكو من كفيها المتيبستين، المعرضتين للكسر والسقوط ... كانت أقرب مستشفى فى مدينة مجاورة ... أسرع الثلاثة إلى باب استقبال الطوارئ ... كان الموظف يجلس إلى مكتبه هادئًا ... لاتبدو عليه علامات الإنزعاج ... مد للزوج يده بورقة طلب منه ملأها ... أسرع الزوج يكتب البيانات المطلوبة ... وكان من ضمن أسئلة الورقة : هل لديكم طبيب للعائلة ؟ أى هل تترددون بصفة منتظمة على طبيب ؟ فأجاب الجار نعم ... وعندما قرأ الموظف ذلك .. اعتذر عن قبول زوجه بالمستشفى ما دام هناك طبيب خاص بالعائلة ...

خرج الثلاثة مسرعين ، ركبوا السيارة مرة أخرى ... قصد الفتى إلى مدينة أخرى مجاورة ... تحدث الزوج عن سوء البيروقراطية ... وما تسببه من أضرار للناس .. إن الموظف البيروقراطى لايفرق بين حالة وأخرى .. إنه يتبع ما هو مكتوب .. يمشى بحرفيته ...

وصل الثلاثة إلى المستشفى الثانى ... دلفوا بسرعة ... وجدوا نفس المنظر ، موظفا لاتبدو على ملامحه أية

انفعالات . . . مد للزوج ورقة يملأ البيانات المطلوبة فيها . . . وعند السؤال الذى يسأل عن طبيب العائلة . . أجاب الزوج لا . . . قبلوا الزوجة . . أسعفوها . . . عاد الفتى بالزوجين مع أول خيط من صباح اليوم التالى . . .

☆ ☆ ☆

اعتاد الفتى على مدينته . . . وإنخرط فى نمط الحياة السائد فيها . . . واعتاد الناس فى هذه المدينة أيضًا أن يروا الفتى . . . فهو يلتقى بأساتذته وزملائه فى الجامعة . . ويقابل أصحابه بعد ذلك فى أوقات الراحة . . وربما صادف جارا أو زميلا فى السوبر ماركت أو البنك أو عيادة طبيب . . . فتبادل معه حديثا سريعا .

قالت له إحدى زميلاته عندما علمت أنه سيعود إلى وطنه : إنها لاتتخيل هذه المدينة بدونه . وقد سر الفتى لذلك سرورًا شديدًا ، وشكر لها حسن تعبيرها ، ورقة شعورها ، وجميل توديعها . . .

لقد أصبح جزءا من بلده الجديد . . وأصبحت هذه المدينة الجميلة جزءًا منه أيضًا . . . وتكون بينه وبينها نوع من التآلف والحب . . . والهوية أيضًا . . وهو فى نفس الوقت يحب وطنه الأم . . مصر . . الوطن الكبير . . . وبدأ فى المرحلة الأخيرة

يشتاق إليها . . . للوالدين والإخوة . . . لأصدقائه الذين لايدرى أين يقيمـون الآن . . فى مصر أم تفرقوا فى الـبلاد . . . إتصل بالمعهد الدولى للتعليم ، الذى كان مشرفا على بعثته . . . واتصل بسفارة بلده . . . أبلغهم بعـزمه على العودة . . . هنؤه . . وتمنوا له التوفيق . .

بدأ الفتى يستـعد للسفر إلى مصر . . . لقد كان يـسيطر عليه شعور غريب فى الفترة القصيرة التى سبقت عودته . . . كان يريد العودة ، وفى نفـس الوقت كان يحب أمريكا . . . لـقد كان شابا صغيـرا عندما جـاء إليها مـن مصر . . . كانت هـى أول بلد يزوره . . . عاش فيها أيام الشبـاب العزيزة . . وجد فيها ذاته . . تفتح فيها عقله . . وتكونت بها شـخصيته العلمية . . . إنه يشعر الآن شعور من يسـميه علم النفس بالإنـسان الحدى ، أو الحائر ، أى الذى يقف علـى الحدود ، بين خيارين صعبـين . . هو يحب وطنه وينتـمى إليه . . . وهو كذلك يحب بلده الجـديد وينغمس فيه . . إنه يريـد العودة ، ولكن البقاء هنـا أيضًا مغر . . .!! لماذا إذن رفض العـروض المقدمة لـه للبقـاء . . . لم يحاول دراستها ومقارنتها ؟

كانت هناك فرص كثيرة بعد حـصوله على الدكتوراه ، وحتى

قبل ذلك بقليل . . كان أحد أصدقائه يعمل فى جامعة بولاية مجاورة ، وأخبره أن هذه الجامعة بحاجة إلى أستاذ جديد فى تخصصه . . . وأخبره زميل آخر أن جامعة أخرى - فى ولاية بعيدة - يمكن أن تستفيد بخبرته ومجال تخصصه . كما أخبره أحد الأساتذة المشرفين على رسالته للدكتوراه ، أن بالرسالة موضوعات تصلح لأن يجرى فيها بحوثا ويكتب فيها مقالات مستقبلة ، وأبدى الأستاذ إستعداده - إذا قرر البقاء فى الولايات المتحدة - أن يشترك معه فى تلك البحوث والمقالات . وكان هذا العرض وحده كافيا لأن يجعل الفتى يبقى بأمريكا - فى نفس الولاية أو ولاية أخرى . وماذا يطمع أستاذ مبتدأ فى أكثر من أن يقترن إسمه باسم أستاذ قديم ، مشهور ، له كتب ومؤلفات عديدة ، يحترمه الكثيرون ، ويقرأون بحوثه فى كافة الجامعات الأمريكية ، بل أيضًا فى العالم ؟ وحتى خارج الجامعة . . إقترح على الفتى أصدقاؤه الأمريكان أن يبقى . . فهناك فرص عمل كثيرة ، تنتظر من هم فى مثل علمه وثقافته .

استمع الفتى لكل هذه العروض والآراء . . . كان الإغراء شديداً . . . لقد أحب الفتى بيئته الأمريكية . . وربما أحس فى السنتين الأخيرتين لبعثته أنه واحد من الناس الذين يعيشون

هناك . . . تأمرك الفتى . . . أليس هذا شيئًا طبيعيا ؟ ألا تطبع البيئة الأفراد الذين يعيشون فيها بطابعها ؟ فى إتجاهاتهم ، وقيمهم ، وعاداتهم ، وأنماط سلوكهم وعلاقاتهم مع الآخرين . . . وربما أيضًا ملامحهم وأجسامهم . . . وإن كان هذا يحدث بدرجات متفاوتة بين الناس - باختلاف الزمان ونوع المجتمعات . . . ولكن ربما كان الصغار والشباب - بشكل عام - أسرع تكيفا وإندماجا ، وأقرب للتغير والتأقلم فى المجتمعات التى يوجدون بها . . . والأمر لايرتبط بالعمر فى حد ذاته . . . بقدر ما يتعلق بالميول والأهداف والاتجاهات .

المهم أن الفتى تكيف تمامًا مع بيئته الأمريكية وتفاعل معها . . . المدينة ، الناس ، التعليم ، الأحداث الجارية . . . كل شىء . . لم تكن إقامته كلها رخاء وسعادة - كما نوه من قبل . . كانت هناك أيام شقاء أو مرض ، أو موت قريب أو صديق . . . لقد تألم كثيرًا عندما سمع عن موت أحد أخواله بصعيد مصر . . . لم يكن قد رآه منذ زمن بعيد . . . حتى قبل البعثة بسنين . . . كان الفتى وهو صبى صغير يكن لهذا الخال إعزازا شديدًا . . كان يحس نحوه بعاطفة غريبة - هى مزيج من الحب والإعجاب بصبر هذا الرجل وطيبته . . كان زاهدا فى الدنيا ، منصرفا عن مباهجها . . يقضى وقته فى الحقل الذى يملكه . .

يتأمل ... يعمل ما شاء الله له أن يعمل ... يقرأ صلواته .. يشرب الشاى الداكن الذى يفضله كثير من الفلاحين - فى صعيد مصر والوجه البحرى ... كان الناس يحبون هذا الخال .. يسلمون عليه ، ويسألونه الدعاء لهم .. كانوا يحسبونه صالحا - والله حسيبه . وكان يسألهم هو بدوره الدعاء له ... وكان الصبى يعجب من ذلك عندما كان صغيرا ... فكيف يطلب هو من الناس الدعاء ، وهم الذين بدأوه بالسؤال ... ولكن سبحان الله ... ربما استجيبت دعوة لأحدهم فنفعته فى دينه أو دنياه أو آخرته ...

وسمع الفتى كذلك عن موت آخرين .. وتأثر لذلك كثيراً . وسأل الله تعالى لهم الرحمة . لم يكن الفتى فى صباه يفكر فى الموت ... ولكن عندما كان يمر بخاطره أن أباه يمكن أن يموت وهو فى البعثة بعيد !! كان مجرد هذا التفكير يرعبه ، يطرد عنه النوم ... لقد خطر نفس الشىء ببال أبيه ... وأوصاه بألا يقطع بعثته إذا سمع بموته ، وإنما يجب أن يستمر إلى أن ينجز مهمته ثم يعود ... كم يود الفتى أن يرى أباه مرة أخرى .. لقد أتم بفضل الله مهمته ... وأبوه حى يرزق .. فليعد ، ليراه ، ويقبل يديه الكريمتين ، ويرد له ولأمه بعض الجميل .

☆ ☆ ☆

ذهب الفتى إلى نيويورك ... وقصد مطار كيندى الدولى ، نفس المطار الذى وطأته قدماه لأول مرة منذ سنين .. قادما من مصر ... نفس الزحام وتسابق المسافرين - كل فى وجهة معينة ... ولكن صورة المطار اليوم مختلفة ... والمعنى ، الإحساس ، الذى يوجد فى نفسه مختلف أيضًا ...

كان خائفا بعض الشىء عندما جاء أول مرة ... واليوم يحس بشىء من الألم الذى يحدثه الفراق فى النفس ...

كان مقبلا على المجهول .. تمتلأ رأسه ونفسه بالأسئلة الغامضة التى لايجد لها إجابات محددة ... واليوم يترك مكانا أحبه ، وألفه ، ووجد فيه ذاته ...

كان مترددا غريبا صغيرا ... واليوم كبر قليلاً ، وأحس أنه ليس بغريب .. إنه إبن البيت ...

كان يتكلم اللغة الجديدة على إستحياء ... واليوم تجرى على لسانه طيعة لينة تلقائية ...

كان قلبه مفعما بآمال كبيرة ... حققها بفضل الله .. واليوم تحدوه آمال أخرى كبار ...

كان وحيدا ، إلا من زميله الذى جاء معه ... واليوم يسافر أيضًا وحيدًا ...

ركب الطائرة . . . ابتلعه الطائر الضخم . . ها هو يترك أمريكا . . البلد الذى أحبه ، وترك فى نفسه أثرا كبيرا ، والذى عاش فيه سنوات هى جزء من شخصيته ، كيانه ، حياته . . . الطائر يحلق فى السماء . . يأخذه بعيدا . . . البيوت والأشجار والجبال . . . تصغر ، تبتعد ، تتلاشى . . . هل يا ترى سيجئ هنا مرة أخرى ؟ لقد أحس فجأة بالتعب . . . كان يجرى خلال السنوات السابقة ، فى سباق التحصيل والإنجاز . . . إنه الآن يرغب فى الراحة قليلاً . . . الطائرة تبتعد به أكثر وأكثر . . . وداعا أمريكا . . ومرحبا مصر .

وصل الفتى إلى روما . . . نفس المسار الجوى القديم . . . سبحان الله . . . أصبحت رحلته إلى أمريكا تاريخا قديمًا الآن . . . أحس بوحشة شديدة عندما هبط إلى مطار روما . . وكأنه أمريكى يهبط إلى بلد أجنبى . كان عليه أن ينتظر ساعتين أو أكثر قليلاً ، حتى يركب الطائرة التالية إلى القاهرة . . . بدأ يتجول فى المطار . . يتفرس فى وجوه الناس . . لمح فتاة أمريكية مسافرة ، وكأنه عثر على صديق . . . أنفق الوقت يتحدث معها . . . حان موعد طائرته . . أخذ مقعده . . . ونظر من النافذة ، وسرح بفكره بعيداً . . وسرت فى جسده قشعريرة غريبة . . .

حط الطائر الضخم على أرض المطار . . . إنها القاهرة . . مصر . . . أخذ الفتى نفسا عميقا . . أى ريح طيبة تهب عليه . . . ألقى نظرة سريعة على المطار . وكأنه يستفسر منه عن مصر . . أراد فى هذه النظرة أن يستوعب كل شىء . . . كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل . . خرج إلى الشارع . . . حيث القاهرة ، الحية ، الساحرة الساهرة . . . أخذ تاكسيا . . سأله السائق : أى طريق تريد أن تسلكه ! لم يدر الفتى أى طريق . . أخبره عن وجهته فقط . . . مضى التاكسى مسرعا . . والفتى يتلفت يمنة ويسرة . . . لايريد أن يفوته شىء . . . حاول أن يتذكر الأشياء من حوله . . . لايكاد يتبين شيئًا . . . كان الليل ينشر أستاره ويخفى أسراره . . .

وصل التاكسى إلى البيت . . . نعم هذا هو البيت . . . لم يتغير . . . نظر إليه الفتى بإمعان . . . وكأنه يستفسر منه عن أحوال من بالداخل ! كان يلف المكان سكون شامل . . . إنها الساعة الثانية . . . صعد الفتى السلم بسرعة . . . ها هو الباب ، عليه اسم أبيه . . . طرق الباب مترددا . وكأنه غريب . . ودقات قلبه تعلو وتتابع . . . دق الباب مرة أخرى . . . وبعد لحظات جاءه صوت أمه تسأل من بالباب ؟

ما أجمل هــذا الصوت . . وأعمقه وأطيــبه . . . إنه صوت أمه . . صوت بــلده . . صدى مصر الحبيبة . . . لقــد أعاد هذا الصوت للفتي ذكريات ســنين طويلة . . . لك الله أيتها الأم . . . كانت مثالا يحتذى فى الحب والبذل والعطاء . . .

لم تكن فقط ترعى أولادها . . وإنما كانــت تحتويهم بقلبها ، وعقلها ، وجميع جوارحها . كانــت تسهر على راحتهم . . تلبى طلباتهم . . تسعد بنموهم . . تتألم لمرضهم . . تفرح لنجاحهم . ورغم أنــها لم تتــردد على مدارس ولــم تختــلف على أســاتذة أو تحصل على شهــادات ، إلا أنها كانت تقدر قيمة العلــم بفطرتها ، كانت تحــبه لحب زوجهــا له . كانت تســاعد أولادها فى تحــصيل العلــم . . تسهر معهــم إذا سهروا للمــذاكرة ، تقدم لهم الــطعام والشراب ، تــوقــظ النــائم فــى ســاعة معــينة يحــددها لــها ، وتنصح هــذا بأن يأخذ قسطــا من الراحة أو النوم ، وتــذكر هذا بمواعيده . . .

كانت امرأة قوية ، يعــتمد عليها . . كانت تنفق وقــتها ومالها وصحــتها ، فــى سبيــل زوجها وعــيالــها . ربما لــم يتنــبه الفــتى لتضحيات هــذه الأم عندما كان صغيرا . كان هو واخــوته ينهلون مــن مــعين حنانها وعــطائها الذى لاينــضــب . . . اعتــادوا على

ذلك . . . ضمنوا أنهم يحصلون على هذا الحنان والرعاية المستمرة . فمنذ أن تفتحت أعينهم ، والأم تقوم بدورها العظيم . كانوا يأكلون الطعام الذى تعده ، ويلبسون الملابس التى تغسلها وتنظفها وتصلح التالف وتخيط القديم منها . كانت اقتصادية عظيمة . . . تعيش بالموارد المتاحة . . تستغل كل ما يوجد من إمكانات - على قلتها أو كثرتها - كانت مهندسة تحول البيت إلى مصنع صغير . . موارده محدودة ولكن إنتاجه غزير . لم تكن تترك شيئًا إلا وجدت له استخداما . . تلمس تأثيرها فى كل ركن من أركان البيت . . . كل شىء نظيف مرتب بسيط ، يدلك على أن وراءه سيده نشطة ، مديرة ماهرة ، مخلصة ، محبة لزوجها وعيالها .

لم يكن الأطفال يتنبهون للدور الكبير الذى كانت أمهم تقوم به . . . نعم ، كثير من الأشياء لايدركها الإنسان إلا عندما يكبر ، وينضج ، ويفهم ما يدور حوله . فمثلا لهفة الأم عندما يغيب ابنها الصغير أو يتأخر عن موعد عودته إلى البيت . . حدث للفتى ذلك مرة عندما كان فى المدرسة الإعدادية . . . وجد جمهرة من التلاميذ يلهون بعد المدرسة ، فمكث معهم قليلا . . . وعندما عاد وجد أمه ترتجف ، شاحبة الوجه لغيابه . . . ويخته وقلبها يتمزق

خوفا عليه . . . أغلظت له القول ولسانها يلهج بحمد الله لعودته .

تضايق الصبى من هذا الحنان الزائد . . ولكن لو كان مكان أمه ، ماذا كان عساه أن يفعل ؟ لابد أن تأخره عن عودته للبيت ، قد أعاد إلى ذاكرة أمه حادثا آخر حدث له وهو طفل صغير . . . فقد وجد الباب مفتوحا مرة ، فخرج إلى الطريق . . . طفل فى الثالثة من عمره ، لايعرف أين هو ، ولايكاد يعبر عن نفسه . . أين يذهب ، هل يمشى يمينا ! هل ينحرف يسارا ! أين البيت . . . اختلط عليه الأمر . . . مشى هنا وهناك . . تاه الولد . . . تفقدته أمه فلم تجده . . . انفطر قلبها ، وذهبت نفس الأب حسرات . . . الجميع يبحثون . . . الوقت يمضى . . أين الولد ؟ هل خطفه أحد ؟ هل أصابه مكروه ؟ ظلت الأم تبكى . . . وجدوه أخيرا ، بعد أن إنحسر النهار . وجده أحد الجيران الأعزاء ، الأمناء . . جاء به مسرعا إلى أمه وأبيه . إنهار الأبوان . . عقدت الفرحة لسانيهما . . . هاهو وليدهما ، وحيدهما فى ذلك الوقت . . يعود مرة أخرى .

الأطفال لايدركون ما يسببون لآبائهم وأمهاتهم من آلام . . يتضايقون عندما يكبرون قليلاً ، من شدة حنان الأم ، أو من كثرة

حـــرص الأب . ولكــن لابـــد أن الآباء مدفـــوعـــــون إلــى ذلك بالحــب . . وربمــا لايملكون إلا أن يفعــلوا ذلك . فبعضــهم رقيق الإحساس ، والـبعض ضعيــف ، لايحتملــون أن يصيب عيــالهم مكروه ، ولايطيقون حتى بعد أولادهــم عنهم . يقولون فى المثل الشعبــى : قلبى على ولــد انــفطر ، وقلب ولدى علـيه حجر !! نعم . . إن انفطــار قلوب الآباء شىء طبيعــى . . أليس أولادنا - كما قـــال الشاعــر - أكبادنا تمشــى على الأرض ؟ أنهــم جزء من الآباء ، إمتداد لهم . . .

ولكن الأولاد من جهــة أخرى : لهم شخصياتهم المــستقلة ، أهدافــهم ، آراؤهم ، وجــهات نظــرهم فــى الحياة والأمــور من حولــهم . . . ربما رأوا غــير ما يــرى آباؤهــم ، وإتجهوا إتجــاهات مختلــفة . . فربما فضل ابن الطــبيب ألا يكون طبيــبا كوالده . . . وربما اتجه ابن المحامى إلى الهندسة . . . . صحيح أن الابن امتداد لأبيه ، ولكــن ليس ضروريا أن يــكون نسخة أخرى منه ، تكرارا له ، صورة قــد تكون باهــتة أو ضعيــفة إذا ضعط الأب عــليه أن يكون على شاكــلته . . . من شابه أبه فما ظلم ؟ نــعم ! ربما يقلد الإبن أباه ، فــى خلق قويم أو ســيرة حسنــة . ولكن يحــسن أن يكون مستقل الــتفكير متميز الشخصــية . فطن لذلك الأوائل . .

فينصــح على ﷺ الآباء بأن يربوا أبـنائهم على غيـر ماربواهم . لأنهم خلقوا لزمان غير زمانـهم . . لذلك كان المثل الشعبى ، إن كبر ابنك خاويه .

فعلـت أم الفتى ذلك عـندما كبر عيـالها . . لأنهم كـانوا كل حياتهـا ، ومركز إهتمامـها . . . إحترمت شخـصياتهم ورغبـاتهم عنـدمـا كبروا . . . ولكنهـا فـى نفس الوقـت لم تغفـل عنهم لحظة . . . كانت تراقبهم عن بعد . . تلبى طلباتهم قبل أن يعبروا عنها ، تحس بآلامـهم قبل أن يصرحوا بها ، تشعر بـأحاسيسهم ، تألـم لآلامهـم ، تفرح لـسعـادتهـم . . . تود لو اسـتطـاعت أن تساعدهم جميعا فى تحقيق أهدافهم . . .

من بالباب ؟ صوت أمه يجئ مـن الداخل . . خيل للفتى أن الزمن قد توقف لحظة . . . تداعت كـل السنوات الماضية وتجمعت سريعا فـى هـذه الدقيـقة !! إنها أمه الغـالية . . . صوتها يـتدفق حنانـا . . . ولكن لماذا هـو ضعيف بعـض الشىء ؟ هل هـو بعد الإبن ؟ هـل هـو مرض الأب أثـناء غياب إبـنـه ؟ هل هـى وطأة الحياة ؟ هل هـو التقدم فى العـمر ؟ هل هو الحزن لفـراق بعض الأحباب الـذين ماتوا فى فتـرة غياب الإبن ؟ هل هو الـنوم الذى أيقظها طرق الباب منه ؟ هل هو النصب والإجهاد من شغل البيت

ورعاية الـزوج والأولاد ؟ نعم .. لقد أفنـت هذه السيدة الطـيبة حياتـها فى خدمة زوجـها وأبنائها .... وربمـا لم يقدموا لـها ما تستحق من جزاء ... وهل يستطـيع ابن فى العالم أن يكافئ أمه على مـا فعلت ؟ حـملته وهـنا على وهـن ... حملتـه كرها ، ووضعته كـرها ... ربته .. شاهدته وهـو يكبر أمام عيـنيها .. بكت لبكائه ، وسعدت لضحكه ، وفرحت للعبه ، وإنشرح قلبها لنموه ، وأثلج صدرها نجاحه ... ألم يوصينا النبى ﷺ بحسن صحابة الأم ، وبـأن يلزم الإنسان قدمها ، وأن الجـنة تحت أقدام الأمهات .

أنا يا أمى ... أجاب الفتى نـداء أمه ، وغصة فى حلقه .. كان يشفق عليها أن يصيبها مكروه من المفاجأة .. من شدة الفرح - وهى التى انتظرته طويلاً ...

كيف يا ترى قضت الأم هذه السنوات ؟ يذكر الفتى أنها كانت تبـكى قبـل فراقه بشـهور ... كانـت تنظـر إليه ملـيا ، وكأنـها لاتصدق أنه سيسافر ويتركها ... كانت تحـتويه بعينيها ، بقلبها ، تدعو له .. تبكى عندما تخلـو إلى نفسها ... ماذا فعلت بعد أن مضى ؟ لابد أنها بكت ، وتألمت ، ولـم تنم ليالى وأياما ...

يالقسوة الأبناء !! يتفرقـون هنا وهناك ... يتركون آباءهم ،

ينسلخون عنهم - كل فى طريقه ، ويتركونهم للوحدة والألم وكبر السن ... ولكن لابد مما ليس منه بد .. هكذا الحياة ... وماذا عسى الأبناء أن يفعلوا ؟ قطعا أنهم لايستطيعون أن يبقوا إلى جوار آبائهم ..! ولايجب أن يفعلوا ذلك فيقعدوا عن السعى .. ولو فعلوا لإعترض الآباء ... إن هؤلاء يريدون صالح أولادهم ، يحبون لهم السعادة والنجاح .. إنهم يدوسون على عواطفهم فى سبيل رفعة شأن أولادهم ، يكتمون رغبتهم فى بقاء أولادهم إلى جوارهم ، فيتركونهم يمضون ، بل يدفعونهم لذلك أو ينصحونهم بأن يسعوا إلى أرزاقهم وأمجادهم - لقد أوصى والد الفتى إبنه ألا يعطل بعثته إذا سمع بمرضه أو موته - ويبقى الآباء وحدهم بعد ذلك ، يسلمون أنفسهم للذكريات والأمل .. يجترون الأيام الحلوة الماضية ... يعيشون على مخزون السعادة القديم .. يجددونه كل يوم ، ويستعيدون مشاهد منه - قصيرة أو طويلة - بين الحين والآخر ...

أنا يا أماه ... أجاب الفتى أمه .. وقلبه ينتفض بين جنبيه ، فرحا وإشفاقا على أمه من الفرحة العارمة ...

أنا يا أمى .. ولدك الصغير ، المحب ، المطيع ... الذى ربيته وعلمته وأدبته ، وغرست فيه مبادئك القويمة ، وقيمك

الراسخة .. والذى تعلم منك ومـن أبيه ، أثمن ما تعلم ، وعزز ورسخ ما تعلمه من المدارس والأساتذة والمربيين ...

لقد كان لـكل كلمة قلتـها له ، صدى فى قلبـه وعقله ... ولكـل تأديـب ورعاية لـه ، وقع طـيب فى نـفسـه .. وإن كان ساعتهـا قد تذمر من هذه الـرعاية وذلك التأديـب... إن كلامك محفور فى نفـسه .. وتوجيهاتك مطبوعـة فى صدره .. وحبك أنت وأبيه مخلوط بدمه الذى يجرى فى عروقه ...

أنا يـا أمى ... ولدك .. فـلذة كـبدك .. جاءك يـنوى أن يعـوضك عـن غيـابه الطـويل .. وإذا كـانت الأهـداف والآمال الكبيرة قد فرقت بينك وبينه ، فـإنك لم تغيبى لحظة عن خياله ، كمـا أنه لـم يغـب - بالـتأكـيد - لحـظة عـن خيـالك وفـكرك ووجدانك . كانـت بينكما مسـافات شاسعة ومسـاحات واسعة ، ولكن حبه لك ، وحنانك الكبير وقلبك الرحيم .. كل ذلك كان يتجاوز المـسافات والمساحات ، ولايـتأثر بالزمان والمـكان .. حتى لكأنـه كان يسمعـك - على بعد - وأنـت تدعين له بالـنجاح .. وكأنه كان أيضًا يراك وأنت تبسطين يديك ضارعة لله العلى القدير أن يحفظه ويرعاه ويرده إليك سالما .

وفتحـت الأم الباب ... رأت الفتـى .. إبنها ، صغـيرها ،

أمامها مرة أخرى . . انهمرت الدمـوع من عينيها . . . عدت إليك يا أماه . . . ذاب الـولد فى حضـن أمه . . تحسـسته ، تأملـته ، ونظرت إليه مـليا . . من خلال دموعها . . مـن خلال حبها . . من خلال سنوات الفراق الطويـل . . . حمدا لله على سلامتك يا ولدى . . .

أوقظ الإخوة . . . هرعوا إلى أخيهم . . . الحب يرفرف على الأسرة . . إلتأم الـشمل . . اجتمع الأحبـاب مرة أخى . . . أين أبى يا أماه . . إنه نائم يا ولدى . . . إتركيه يا أماه ، لننتظر حتى الصباح . . . ليباركك الله أيتها الأم . ليباركك الله أيها الأب . . . أيها الأخوة الأحباب . . البيت الـكبير . . الأحضان الدافئة . . . ليباركك الله أيها الوطن الحبيب .

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

https://twitter.com/SourAlAzbakya

https://www.facebook.com/books4all.net